من رسائل القديس صفرونيوس

الحياة

حسب نعمة الله

مقدمة:

صفرونيوس يفتخرُ بأنه عبد المسيح، فهذا هو الفخر الوحيد القانوني الذي يليق بنا نحن "لُبَّاسُ الصليبِ" وتلاميذ الرسل والأنبياء، والتابعين لربنا يسوع المسيح.

١– سلامٌ ومحبةٌ في ذاك الذي غَرَسَ الصليبَ –شجرةُ الحياةِ– على الإقرانيون لكي تُصبح شريعة الجهاد القانوني، أي الجهاد حسب الصليب، لأن الذين يجاهدون حسب الصليب ينالونَ مجدَ القيامةِ، أمّا الذين يجاهدون حسب شريعةٍ أُخرى، فليس لهم الجهاد القانوني الذي شهد له الرسول بولس المعلِّم الأمين.

٢– مباركٌ ربنا يسوع المسيح، الذي أعطانا هذه النعمة المقدسة، أي نعمة التبني في حميم الميلاد الجديد. فهذه هي نعمة الله التي فاضت من أُقنوم الابن الوحيد لكي نشتركَ في بنوته ولكي يفرحَ بِنا كَبكرٍ بين إخوةٍ كثيرين (رو ٨: ٢٩).

٣– نحن لا ننال التبني بسبب أي أعمالٍ نُسكيَّةٍ أو ممارساتٍ، مهما كان الخير الذي فيها؛ لأن **النعمةَ ليست أُجرةً، بل هي عطيةُ الله لنا في ربنا يسوع المسيح**.

٤– وهكذا أيضاً عندما نتقدم إلى المائدة السماوية، وعرش محبة ربنا يسوع المسيح، **مذبحُ الكنيسةِ الجامعة الذي يَكرِزُ بصوتٍ عالٍ بالخلاص والحياة الأبدية، لأنه المذبح المقدس الناطق السمائي، الذي مِن عليه ننالُ خبزُ اللهِ** (يوحنا ٦: ٤٥)، لأننا لا نتقدم إلى المائدة بسبب أعمالنا الصالحة، وإنما طاعةً لنداء ربنا يسوع المسيح: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، وهو نداء محبته العظمى للخطاةِ؛ لأنه يعطي لنا جسده

ودمه "لمغفرة الخطايا"، وللثبات في شريعة الحياة التي فاضت مِن ربنا يسوع المسيح.

النعمة من الآب بالابن في الروح القدس[١]:

٥- عندما تجسَّد الابن الوحيد، كلمة الله، واتَّحد بالجسد والنفس الإنسانية. أعطى الجسدَ حياةَ عدم الموت، وأعطى النفسَ الإنسانية معرفةً كاملةً بالأسرار السماوية، لأنه جعل النفسَ والجسدَ واحداً معهُ وفيهِ بتجسُّده مِن البتول القديسة مريم والدة الإله. **وعندما نقول إنه أعطى جسده ونفسه الإنسانية عطايا وخيرات اللاهوت، فمصدر هذه العطية الاتحاد الأُقنومي، أي اتحاد أُقنوم الكلمة ابن الله بالناسوت. لأن ما نَنَاله نحن يُعطَى لنا، ليس بواسطة اتحاد اللاهوت بالناسوت كما في الابن الوحيد، بل بواسطة اتحادنا بالنعمة التي بها نشترك في خيرات الابن الوحيد وحسب صلاحه ومسرته. ولذلك، فالنعمة تصل إلينا مِن الآب بالابن، ولكنها لا تتم باتحادنا به حسب اتحاد الطبيعتين في ربنا يسوع المسيح، ولكن باتحادنا بالابن حسب نعمة وعطية الروح القدس، الذي يسكُبُهُ الابنُ علينا حسب غزارة محبته، ونحن أبناءٌ حسب النعمة، أي حسب عمل الله الآب فينا في ابنه الوحيد.** وهو عملٌ تملك حرية الإرادة والاختيار فينا أن تجعله محدود الفائدة، وهو ما يؤكده رسول المسيح بقوله: "لا تطفئوا نار نعمة الروح القدس"، وفي مناسبةٍ أخرى يطلب أن تشتعل هذه النعمة: "أضرم الموهبة السماوية التي أخذتها بوضع يديَّ" (٢ تيمو ١: ٦).

هذا يجعل شركتنا مع الآب والابن والروح القدس، شركة نعمة وحَسَبَ النعمة، وليست شركة حسب الجوهر الإلهي الذي يشترك فيه الثالوث وحده. وحرية اختيار الابن المتجسد هي حريةٌ نابعةٌ من اتحاد حقيقي بين اللاهوت والناسوت، ولا تخضع للأهواء أو الضعفات؛ لأنه هو وحده بلا خطية. وإذا قيل إنه مجرَّبٌ مثلنا في كل

---

(١) هذا العنوان من كلمات القديس أثناسيوس في رسائله لسرابيون عن الروح القدس وهو ملخص التعليم الأرثوذكسي عن الثالوث وعن النعمة (راجع الرسائل عن الروح القدس إلى سرابيون – مركز دراسات الآباء – القاهرة ١٩٩٤).

شيء، ولكن بلا خطية، فلأنه لم يكن مثل آدم الأول الذي عاش بمشورته بعيداً عن الله.

اتحادنا بالرب حسب النعمة:

٦- ولنفس السبب، **فإن قدرتنا على تعطيل عمل النعمة، بل فقدانها في المرتدين هو مثالٌ ظاهرٌ يؤكِّد لنا أن نعمة الله لا تعمل فينا حسب اتحاد اللاهوت بالناسوت، أي اتحاد الطبيعتين في ربنا يسوع لأنه اتحادُ أُقنوم الكلمة بالطبيعة الإنسانية،** أي الناسوت الذي أخذه من والدة الإله وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. أما في حالتنا نحن، فهو اتحادُ بَشريتنا بالكلمة المتجسِّد وبنعمة الروح القدس، وحسب مسرة الله، أي أنه اتحادٌ حسب النعمة. ومَن يُدقق في كلمات رسول المسيح يرى أن الروح القدس يُوَزِّعُ المواهبَ والعطايا المختلفة، وأن كل واحدٍ مِنّا ينالُ موهبةً أو أكثر حسب إرادة وعمل الروح القدس. بينما في ربنا يسوع المسيح، كل المواهب والعطايا هي فيه مجتمعةً وكاملةً، لأنه هو "المِلء"، ونحن نأخذ مِن مِلئه (يوحنا ١: ١٦). وحقاً قال الرسول إن "ملء اللاهوت حلَّ فيه جسدياً"، ونحن نمتلئ منه وفيه.

اتحادنا بالرب في سر الشكر:

٧- وحسب التقوى الأُرثوذكسية، فإننا جميعاً نأخذ جسد ودم ربنا يسوع المسيح في السر المجيد والإلهي. فهو يُوَزِّعُ علينا جسده ودمه بنفسه، ولكن اتحادنا به في ذلك السر السمائي هو حسب النعمة، **أي حسب قدرة واستجابة كل واحدٍ مِنّا لهذه النار الإلهية التي تُطهِّرنا مِن كل دنسٍ وغشٍ ورياءٍ،** وهو ما نظل نطلبه بكل انكسارٍ حتى آخر صلاة قبل الشركة في الذبيحة الإلهية.

وبالمقارنة، نستطيع أن نؤكد أن **الاتحاد الأُقنومي يفوق اتحادنا بالرب في سر الشكر، لأن اتحاد الطبيعتين يجعل فعل وعمل الرب الواحد هو فعلٌ وعملٌ لا يوجد فيه تنازع إرادتين أو تعارض طبيعتين، بينما نحن نختبر هذا الضعَف عندما**

تكون لنا إرادة غير إرادة الرب رغم اتحادنا به، مما يؤكد أن الطبيعة الإنسانية التي فينا والتي لنا لا تتحد بالرب يسوع المسيح مثل اتحاد أُقنومهِ الفائق بالناسوت حيث لا يوجد إرادتين متعارضتين، بل إرادةٌ واحدةٌ مِن إرادتين وطبيعةٌ واحدةٌ مِن طبيعتين، حسب التسليم الأرثوذكسي للقديس كيرلس عمود الدين.

أمّا نحن، فنظل مُتَّحدين بالرب إرادةً واحدةً، وجسداً واحداً، وروحاً واحداً حسب النعمة، لأننا نملك أن ننقسم على ذواتنا، بل وأن نترك الحياة الجديدة، ولأننا نسقط في خطايا تُبعدنا عن النعمة. أمّا القدوس البار الذي لم يعمل خطية ولا وُجِدَ في فمهِ غشٌ، فهو لا ينمو حسب النعمة، بل ينمو جسده ونفسه حسب الاتحاد بأُقنوم الكلمة الابن، وحسب الطبيعة التي بلا خطية.

اتحادنا بالرب حسب النعمة:

٨- نحن نتَّحد بالابن المتجسِّد لكي نشترك في بنوته للآب ومِسحته بالروح القدس، وفي محبته وقيامته. وبابُ الاتحاد هو الصليب المجيد الذي به ندخل إلى حياة عدم الفساد و"حرية مجد أولاد الله" (رو ٨: ٢١).

أمّا اتحاد الرب بناسوته الذي أخذه مِن القديسة مريم والدة الإله، فلم يكُن بواسطة نعمة الروح القدس ولا حسب عمل شدة قوتهِ كوحيدٍ للآب له ذات المجد والقدرة والطبيعة الفائقة التي للآب، بل اتحاد الطبيعة الإلهية لأقنوم الابن بالطبيعة الإنسانية التي اتخذها من والدة الإله القديسة مريم، اتحاد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة من مشيئتين.

أمّا نحن، فموت الطبيعة القديمة التي فينا، إنما يتم بالنعمة الإلهية التي ننالها بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به وفيه نتحرر مِن الأهواء الداخلية بالموت عنها.

هذه النعمة ننالها مِن الرب الذي يؤهِّلُنا لأن نموت معه حسب موته على

الصليب. وعندما انفصلت نفسه عن جسده بالموت، أباد بهذا الانفصال، انفصال نفوسنا عن أجسادنا وأقامنا لحياةٍ أبديةٍ. وكما نزل إلى الجحيم لكي يُبطِل قوةَ الهاويةِ ويُغلِقُ فَمَها، هكذا ننال نحن ما نعجزَ عنه بالطبيعة، لأن عجزَ طبيعتنا يَسُدُّهُ كمال نعمة الرب يسوع. ونحن ننفصل بقوة الصليب عن الحياة القديمة الآدمية الأولى؛ لكي ننال الحياة الآدمية الجديدة مِن آدم الثاني الربُّ مِن السماء (١ كور ١٥: ٤٧) ولا نعود نُعَانِي انفصالنا عن الله، بل إن انفصالنا، إنما هو عن الحياة الميتة لننال الحياةَ الجديدةَ في المسيح.

٩– هَزَمَ الربُّ قوةَ الجحيم بسلطان لاهوته، أمّا نحن فلا نهزم الجحيم بسلطاننا، بل بسلطان الرب. ليس لدينا قوةٌ تقدر أن تقف أمام الهاوية أو الموت، بل لدينا قوةُ الربِ، وهي تعمل حسب النعمة، أي لا تعمل حسب إرادتنا وفكرنا، بل حسب عطية الله التي بلا ندامة (رو ١١: ٢٩).

١٠– غَلَبَ الربُّ الموتَ بقوته النابعة مِنه، وأبطل الفسادَ بسبب اتحاد جسده بأُقنومه المحيي والحي الذي لا يموت. وعندما دُفِنَ ظلَّ جسده سليماً لم يقترب منه الفساد. أمّا نحن، فإننا نتحلل؛ لأن انحلال أجسادنا، إنما يتم حسب نعمة الصليب التي تهدم الطبيعة الآدمية القديمة لكي تُقِيم الطبيعة الجديدة، أي طبيعة المسيح الحي الذي لا يموت. هذه النعمةُ، مصدرها المسيح، وهي لا تعمل حسب قدرة إرادتنا، بل حسب اتحاد أقنومه الإلهي بنا، صار الأصل الذي منه تصل كل نعمة وموهبة؛ لأننا نموت ونُصلَب معه ونُدفَن معه ونقوم معه، وفيه يمسحنا الروح القدس، ولا نعمة لنا خارج المسيح يسوع ربنا الذي –حسب الطبع الإنساني– ينتمي إلينا، ولا ينتمي إلينا حسب الخطية، بل حسب عطية الله لنا في ابنه الوحيد.

١١– قامَ الربُّ مِن الأموات بقوة لاهوته؛ لأن الموت لا يقوى عليه. أمّا نحن، فسوف نقوم بقوة المسيح؛ لأن قيامتنا هي عطيةٌ ونعمةٌ ليست مِن طبعِنا ولا يوجد لها "جِذرٌ" أو "أصلٌ" فينا، بل جِذرها في المسيح وأصلها في المسيح.

نحن أغصانُ الكرمةِ نأخذ عُصارةَ الحياةِ مِن جذرنا آدم الجديد. أمّا هو، فهو

الأساس والجذر والأصل الجديد لكل ما هو جديدٍ وغير مائتٍ.

الشركة في الطبيعة الإلهية هي شركة نعمة:

١٢– لا يجب أن نتهاون بالنعمة؛ لأن ما هو ضـــد النعمةِ هو الموت والخطية. **النعمةُ نابعةٌ مِن الآب، مُعلَنةٌ في الابن ومعطاةٌ بالروح القدس**؛ لأننا نعود إلى الآب بإعلان الخلاص الذي أكمله الابن الوحيد وبعمل الروح القدس. وهذه ليســت إعلانات منفصلةً، بل هي عمل الثالوث الواحد بالجوهر.

والنعمة تنبع مِـــن الأُلوهة الواحدة للثالوث، وتُعطى لنا بواسطة الوسيط الواحد الذي شاركنا الجوهر الواحد، أي الناسوت، وهو الذي يجعل ربنا يسوع المسيح ينتمي إلينا كبكرٍ "بين أخوةٍ كثيرين"، فقد وحَّد ذاته معنا وبنا، ليس حســب الانفصــال الذي يأتي مع الخطية لأنه قدوسٌ وبلا شــر، بل حســب عطية الآب. وهكذا أعلن الآبُ نعمته في تجسُّــد الابن الوحيد، وبميلاد سمائي مِن فوق وعلى مثال ميلاد الابن، يحوِّل طبعَنا القديم بصلب الطبيعة القديمة، وينهضها طبيعةً جديدةً حيةً لا تموت.

هذا هو الإعلان الإلهي عن الخليقة الجديدة.

ولما مُسِحَ الربُّ في الأردن مِن بعد معموديته، صارت هـــذه المِسحة الإلهية هي القوة التي تنقل لنا –مِن المسـيح– كل كنوز الحكمة والحياة المودعة فيه، لكي نصـير مثله ونأخذ مِن "ملئهِ" (يو ١: ١٦).

١٣– وماذا نأخذ مِن "مِلء الابن"؟

نأخذ شــركته في الآب والروح القدس؛ لأنه هو الوســيط ورأس الإنســانية الذي غَرَسَ الإنســانيةَ في بحر اللاهوت؛ لكي تنال ذات الغنى وذات المجد الذي نالته إنسانيته.

نحن نأخذ مِن اتحاد اللاهوت بالناسوت، حياة عدم الموت، ورؤية ومعاينة الآب، وقوة وحكمة الروح القدس، والثبات في المحبة الإلهية، ونتحول بالشركة لكي نصير مثل المسيح، ونتحول، لا لكي نكون نحن "المِلء"، بل لكي -كما قال الرسول- "نمتلئ فيه" (وأنتم مملوءون فيه) (كو ٢: ١٠).

١٤- وعِندما نمتلئُ مِنه، لا يعود لنا طبع آدم الأول، ولا تبقى فينا ثمار الخطية، أي الموت. ولا يقترب مِنَّا الفساد، بل ننال ذات الثبات الذي نالتهُ الطبيعة الإنسانية في المسيح عندما اتحدت بأقنومه.

نحن مثل المسيح، ولكن المسيح ليس مثلنا

١٥- ولا يجب أن يتوهمَ أحدٌ إننا سوف نُصبح مثل الابن في كل شيء، بل نحن سنصبح صورةَ الابن، هوَّ الأصلُ والينبوعُ والقوةُ، ونحن الأعضاءُ التي تحركها نعمة الله وعطيته. صورة الابن المتجسد، أي صورة آدم الجديد أو آدم الثاني، وهي صورة الإنسانية الممجَّدة في يسوع المسيح أولاً بعدم الموت والفساد، وثانياً بالحياة الأبدية، وثالثاً بالشركة في حياة الآب والروح القدس بواسطة الاتحاد بالرأس أو الوسيط ربنا يسوع المسيح له المجد.

نحن مثل المسيح في أمورٍ كثيرة وهي كلها تنحصر في الطبيعة الإنسانية الجديدة لآدم الأخير (١كو ١٥: ٤٥). نحن مثله في مجد القيامة – عدم الفساد – ميراث الملكوت – شركة ناسوته في لاهوته، والتي بها أصبح لنا شركة مع الآب بالروح القدس. هكذا يجب أن نفهم معنى أن المسيح هو الرأس، رأس الكنيسة، وهي "جسد المسيح الواحد" وهو الاسم الذي يُطلق على الإنسانية المفتداة، والتي بها صار لنا جميعاً ميراثاً واحداً وشركة واحدة.

وعندما نقول إن المسيح ليس مثلنا، فنحن نؤكد:

أولاً: أنه الابن الوحيد للآب الذي لا يوجد ابنٌ آخر مثله.

ثانياً: نحن لسنا مثله في الألوهة؛ لأننا لسنا من ذات جوهر الآب، بل خُلقنا من العدم. وهكذا –حسب طبيعتنا المخلوقة– نحن لسنا مثل أقنوم الكلمة الأزلي، ولكن – حسب نعمة الله– نحن مثل آدم الأخير وابن الإنسان، الذي أعطى غنى مجده للطبيعة الإنسانية التي أخذها من العذراء مريم.

ثالثاً: واتحادنا بالابن يتمايز عن اتحاد لاهوته بالناسوت في عدة أمور هامة.

١– اتحاد أقنوم الكلمة بالناسوت هو اتحاد طبيعتين في أقنوم واحد هو الكلمة المتجسد. وهو اتحاد أقنومي فائق.

٢– اتحادنا بالابن هو اتحاد البشر، وهم كثرة حسب غنى نعمة الله الآب التي وُهِبَت لنا في الابن بالروح القدس، أي أنه ليس اتحاد طبيعتين في اقنوم واحد مثل اتحاد اللاهوت بالناسوت في الابن الكلمة، بل هو اتحاد كل المؤمنين حسب نعمة الله، أي الكثرة في الواحد، وكلٌّ حسب قامته وحسب المواهب المتنوعة التي يعطيها الروح القدس للمؤمنين في هذا الدهر، والتي لم يُعلن لنا بعد ماذا ستكون في الدهر الآتي؛ لأن مواهب إخراج الأرواح الشريرة، والشفاء، والنبوة، والتعليم، والتكلم بالألسنة، وتمييز الأرواح، وكل ما هو خاص بخدمة هذا الدهر، لن يكون لنا احتياج إليها، ولذلك هي مواهب مؤقتة تعطى لخدمة جسد المسيح، أي الكنيسة.

٣– اتحادنا بالمسيح حسب نعمة الله، يخضع لحرية الإرادة عند المؤمنين. أما الاتحاد الأقنومي الذي لم يتكون ولم ينشأ بواسطة النعمة، فهو يخضع لإرادة الابن الحرة، وهي ليست مثل إرادة المؤمنين؛ لأن لها ثبات ومجد اللاهوت وكرامة الابن الوحيد، ولا تخضع لحرية الاختيار عند البشر، بل تخلق ترتيب التدبير الإلهي الذي يختلف عن حرية الاختيار عند البشر؛ لأن التدبير الإلهي هو قبول الإرادة الإلهية والخضوع المؤقت للجوع والألم والموت من أجل إعادة خلق الإنسانية الجديدة في يسوع المسيح، بينما حرية

الاختيار عند البشر هو خضوع حقيقي لا تملك فيه الإرادة الإنسانية الانتصار على الموت؛ لأنها لا تملك الحياة ولا تملك الوجود ولا تملك حرية الحركة حيث تشاء، بل تتحرك حسب قدرات الطبيعة الإنسانية. وهكذا كان الانتصار على الموت في الصليب هو انتصار اللاهوت بواسطة الناسوت، بينما نحن لا ننتصر بقدراتنا الذاتية، بل بقدرة الذي أباد الموت وهدم الجحيم.

٤- وعندما نقول إننا ننتصر بقوة وقدرة المسيح، فنحن نؤكد أنه لا يوجد لدى الطبيعة الإنسانية أي قدرة على مواجهة الموت، ولكن تأتي نعمة الله لكي تمنح الإنسانية في المسيح، ليس قدرةً ذاتيةً تنبع من المؤمنين، بل قدرة نعمة الله الآب التي تعطى لنا في المسيح وبالروح القدس، وبسبب الشركة التي وُهِبَت لنا من الثالوث.

٥- وعندما نقول الشركة، فنحن نؤكد أن الينبوع هو الله، وأننا نحن البشر نأخذ ماء الحياة ويصبح ينبوعاً فينا مصدره الابن الوحيد والروح القدس؛ لأن الطبيعة التي خُلِقَت من العدم، لا تملك كيانها وليس لها قدرة على البقاء، بل تنال البقاء والحياة الأبدية كنعمة من الله.

مبادئ الجهاد القانوني:

١٦- نحن نجاهد لكي لا نخرج خارج الحدود التي رَسَمَها لنا الرب.

وهذه الحدود، هي الوصيةُ المقدسةُ التي ترسم لنا طريق الحياة. هذا هو عمل الإرادة الذي نال معونة الثالوث القدوس. وكلما رأينا فينا الضَعف والعجز، علينا أن نعود إلى ينبوع الحياة ربنا يسوع المسيح.

١٧- ونحن نجاهد لا لكي نبقَىَ في النعمة؛ لأن النعمة هي التي تحفظنا، وبذلك نتجنبَ السقوط. ولكن الذي يجاهد للبقاء ليس كَمَنْ يجاهدُ بخوفٍ، فالأول ينال ثقة المحبة، والثاني ينال المعونة التي تُعطَى للخائفين.

١٨– والبقاءُ في النعمةِ عزيزٌ على الإرادة الإنسانية، ترجوه ولا تناله إلاَّ بصلب الأهواء مع الشهوات. ويُعطِي الروح القدس أمانة المحبة لكي تلتصق النفس بالمسيح المصلوب، ولا تطلب سيادةً عليها إلا سيادة الذي أَعطَى حياته قرباناً على الصليب لكي يحيا به العالم، أي يحيا بالبذل؛ لأننا بهذا البذل ندخل حضرة الآب السماوي حيث دخل ربنا يسوع المسيح سابقاً عنا إلى قدس الأقداس. وأسَّسَ الفداء الأبدي بدم حياته، وبقوة البذل والتضحية، فَتَحَ طريقاً سماوياً بجسده إلى أحضان الآب السماوي التي كان ومازال فيها قَبل وبعد تجسده، والتي حَمَلَ إليها بقوة لاهوته، الناسوت الذي أخذه من جنسنا، من والدة الإله القديسة مريم.

لنرفع عيوننا إلى فوق، إلى هذه النعمة السماوية العظيمة لكي نُدرك إن ما أعطاه لنا محفوظٌ بقوته وبشدة وعزة أُلوهيته؛ لأن مخلصنا، وإن كان قد تأنس، لكنه ابن الله الحي الذي ذاق الموت بالجسد[١]؛ لكي يذوق كل مَن في الجسد ويؤمن به، الحياة الأبدية.

١٩– لا يجب أن تسأل كيف نبقَى في النعمة؟ لأن هذا السؤال يكشف عن جهلٍ بالأُسس الثابتة في حياتنا كمسيحيين. نحن نبقَى في النعمة بحفظ الوصية المقدسة. ونبقَى في دائرة عمل الروح القدس بالالتصاق القلبي بالمسيح الرب المصلوب والحي، ونبقَى في دائرة الالتصاق بالرب بالصلاة والصوم، وطوبى لمن لا يُفارق قلبه اسم ربنا يسوع المسيح، بل يحفظه في كل فكر وعمل، وطوبى لمن يتغذَّى دائماً بخبز الله النازل من فوق الواهب الحياة للعالم، أي جسد ودم ربنا يسوع المسيح.

الجهاد المزيَّف عند المبتدئين:

٢٠– ما أغرب خطايا المبتدئين. إنها تدعونا إلى الشفقة، وتدفعنا إلى الوقوف

---

(١) هذه العبارة هامة جداً فقد وردت في كل كتابات الآباء ابتداءً مِن العلامة أوريجينوس، ولذلك استخدمتها الكنيسة الجامعة في صلاة الساعة التاسعة.

معهم وبجانبهم.

٢١– يحاول المبتدئُ أن يُقنِعَ الربَ –بكثرة الكلام في الصلاة– لكي يساعده الرب، وهو بهذا يجهل محبة الرب التي لا تتغير.

٢٣– ويصلي البعض مقدِّمين أعذاراً كثيرةً تشرح سبب استمرارهم في محبة خطايا أو خطية واحدة.

هذه علامةٌ أكيدة على عدم التوبة؛ لأن التوبة لا تُقدِّم الأعذار، ولا تَلتَمِس الغفران بسبب قوة العُذر، بل تَلتَمِس رحمة الله ومحبته الكاملة للأبرار والخطاة، والتي لا تتغير بسبب السقوط في الخطايا، لأن الرب يقول عن الآب السماوي؛ إنه يُشرق شمسه على الأبرار والأشرار، ويرسل المطر دون تمييز بين الاثنين (متى ٥: ٤٥).

٢٤– لنقدم توبةً نقيةً تعترف بالضعف؛ لأن المجاهد الحقيقي الرسول بولس يحذُّرنا مِن البقاء في أية صورةٍ مِن صور القوة: "حينما أنا ضعيفٌ فأنا قويٌ"، و"أستطيع كل شيءٍ في المسيح يسوع الذي يقويني" (فليبي ٤: ١٣).

والاعتراف بالضعفِ لن يرفع الضعفَ، بل يجعلنا نرى مصدر القوة الحقيقية، أي ربنا يسوع المسيح وحده.

٢٥– لا يجب أن نقع في هذه الحفرة المظلمة التي هي سبب بلاء ومصائب روحية حتى للذين تقدَّموا في العمر. هذه الحفرة هي الشعور بالرجاء والثقة في إرادتنا لأننا نصلي ونصوم ولا نحيد عن الوصية. لأنه سرعان ما نقع في التقوى المزيَّفة، وتنمو في داخلنا كل الرذائل دون أن نشعر بها، لأننا نصوم ونصلي ونشترك في السر السمائي (الإفخارستيا)، وقد مات فينا الشعور بالضعف الإنساني، وبذلك مات جذر التواضع الحقيقي.

٢٦– إن الدليل على موت جذر التواضع، هو سرعة اشتعال نار الغضب

وامتداد هذه النار إلى كل شيء في علاقتنا مع الآخرين.

إن بقاء الغضب في القلب لهو دليلٌ على أننا طرحنا حقيقة ضعف إنسانيتنا في بحر النسيان، وتركنا حقيقة حياتنا مستورةً عن عيني القلب نفسه، وتحولنا إلى صورةٍ تقويٍ مزيَّفةٍ تجعلنا نشعر بالكرامة ونطلبها مِن الناس ونُدافع عنها ونسعى لها، وعند ذلك نغضبُ -بقسوةٍ- إذا مَسَّ إنسانٌ هذه الكرامةَ المزيفة.

٢٧- بالحقيقةِ يا إخوتي إننا كما نؤمن بالله، علينا أيضاً أن نؤمن بضعف الطبع الإنساني ولا يبرح هذا الإيمانُ فكرنا بالمرة.

٢٨- وبسبب ضعفِنا الذي نحاول أن ننساه، نطلب الكرامة المزيَّفة مثل ورق التين الذي حاول آدم أن يستُرَ به طبيعته العارية. وحتماً كان هذا يستر طبيعة آدم إلى حينٍ. وهكذا، على قَدرِ رغبتنا في طلب الكرامة، تشتعل نار الغضب في قلوبنا، وكُلَّما كانت لنا ضعفات نحاول أن نسترها عن أعيُن الناس، كُلما زادت فينا رغبة الانتقام مِن الذين يحاولون مَسَّ كرامتنا المزيفة.

٢٩- أمّا الكرامة التي من الله، فهي لا تُمس ولا يملك أحدٌ أن ينزعها؛ لأنها مِن المسيح يسوع وسيط وضامِن العهد الأعظم (عب ٧: ٢٢)، وهي كرامة قبول الخطاة الراجعين إلى الآب به وفيه. مَن يملك أن ينزع هذه الكرامة؟ إنها كرامة محبة مُحب البشر، التي تَغَنَّىَ الرسول بولس بقوتها وعظمتها التي لا تُحدُّ ولا تقوى كلماتٌ أو لسانٌ أن يُعَبِّرَ عنها: "مَن يفصلنا عن محبة المسيح؟"، وبعد أن وَضَعَ أسماء كل قوةٍ وسلطانٍ، وكل أنواع المخلوقات، وكل أنواع الحواجز مثل الموت، قال لا يقدر أحدٌ أن يفصلنا عن محبة الله التي وُهِبَتْ لنا في يسوع المسيح (رو ٨: ٣٥).

٣٠- لنطلب هذه الكرامة، وأن نكون أولاد الله؛ لأن هذه الكرامة وُهِبَتْ لنا بسلطانٍ فائقٍ مِن الله الآب: "أمّا الذين قَبِلوه، فأعطاهم سلطاناً أن يكونوا أولاد الله الذين يؤمنون باسمه" (يو ١: ١٢). وهكذا، هي كرامةٌ من الإيمان، وهي تبقَى لنا وفينا

طالما أننا نحن في الإيمان.

٣١- الكرامة الحقيقية هي الكرامة التي تبقَى، أي كرامة الحياة الأبدية، عندما نجلس مع وحيد الآب في السماويات، وهي كرامتنا كأولاد الآب السماوي، وإخوةٍ ليسوع المسيح ربنا (عب ٢: ١١). ولا يجب علينا إنْ كان فينا -أي في قلوبنا- حكمة الإنجيل، أن نجعل أيَّ عائقٍ أو أيَّ مجدٍ كاذبٍ، يَحُولُ بيننا وبين الميراث السماوي الأبدي.

أول علامات الإفراز:

٣٢- إن أول علامات اقتناء الإفراز[١] هي تمييز، أو فرز الأبدي مِن الأرضي. الإلهي الدائم مِن الإنساني الزائل. الذي مِن الله والذي مِن الشيطان. ومَن يجد في قلبه ذلك التمييز، فليشكر نعمة الله التي جاءت به من الموت إلى الحياة، وليطلب أن ينال استنارةً أخرى لكي يُمَيِّز نِيّاتَ القلب.

ثباتُ الإفراز:

٣٣- وأول علامات ثبات الإفراز فينا هي حركة القلب الدائمة حتى في أيام قسوة وشدة التجارب، أي أن يطلب إرادة الله، ولا يتأخر عنها، وإن تأخر وتهاون يتوب فوراً دون تهاونٍ. هكذا يثبُت القلب في طريق ربنا يسوع المسيح، أي أن ينالَ حركةً دائمةً لا تتوقف حتى بعد السقوط، ولا يسود عليه اليأس، بل يسعى نحو نار المحبة الإلهية لكي تُطَهِّرَهُ، ويطلب المياه الحية، أي مياه الروح القدس، لكي ينال نقاوةً لا تموت ولا تقوى عليها الخطية، لأنها نقاوة ابن الله نفسه[٢].

---

(١) ترك الأب صفرونيوس رسالة كاملة عن الإفراز والتمييز وحدد أنواع الإفراز على هذا النحو: إفراز الأرثوذكسية من الهرطقة، إفراز نية القلب، إفراز الأرواح المقدسة من الأرواح النجسة.

(٢) راجع عبارة هامة في القداس الكيرلسي.(طَهِّر إنساننا الداخلي كَطُهر ابنك الوحيد)

تقديس الروح القدس الذي لا ينقطع:

٣٤– يقول رسول المسيح مميِّزاً بين نعمة الله العاملة في العهد القديم، ونعمة الله العاملة في العهد الجديد، مُؤَكِداً بكلماتٍ لا تقبل التأويل: "نعمةُ الله بلا ندامةٍ" (رو ١١: ٢٩).

ويقول في موضعٍ آخرٍ إن ربنا يسوع المسيح ليس فيه "نَعَمٌ" و"لاَ"، فهو لا يتردد مثلنا بسبب ضعف محبته، ولا يُغَيِّرُ إرادته لأنه ليس خاضعاً للأهواء مثلنا، ولا يعمل ما هو ضد إرادته. فما هو "النَعَمُ" الذي في المسيح؟ هو قُبُولنا الأبدي بسبب تجسده، إذ اشترك في اللحم والدم الذي لنا، مُؤَكِداً –بما لا يسمح بالشك– أنه صار "البِكرُ" بيننا، وإنه بسبب تجسُّده "لا يَستَحِي" (لا يخجل) مِن أن يدعونا إخوته، بل يمنح لنا ثقةً في أن نطلب الآب باسمه (عب ١٠: ١٩)، ونناديه "أَبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤).

فالمسيح لا يستحي مِنَّا، بل يدعونا إخوته. ولذلك، روح ثقة المسيح يعمل فينا حسب ثقة المسيح وليس حسب أعمالنا، أي روح الآب الذي مَسَحَ الابن المتجسِّد بعد خروجهِ مِن الماءِ مِن الأردن، وأعطاه هذه المسحة، لكي نشترك نحن فيها؛ لأن رسول المسيح يقول: "أمَّا نحن فَلَنَا مِسحةٌ مِن القدوس" (١ يوحنا ٢: ٢٠) ويقول بعدها مباشرةً إن "هذه المِسحة تُعَلِّمَكم كل شيءٍ" (١ يوحنا ٢: ٢٠) ومَن "عِندهُ هذا الرجاء يُطَّهِر نفسه" (١ يوحنا ٣: ٣) مِن دنس اليأس، الوليد الأول للكبرياء؛ لأن المتعظِّم متىَ رأى عجزه عن الوصول إلى النعمة بإرادته، سقط في اليأس وغَطَى يأسهُ بكرامةٍ زائفةٍ، وسَعَىَ وراء السُبح الباطل والعظمة الكاذبة.

٣٥– أمَّا مَن ظل رجاءُ الحياةِ في المسيح فيه حياً لا ينقطع رغم خطاياه، فهو حيٌّ بقوة التقديس التي أخذها. ورغم تهاونه، يحفظه روح ربنا يسوع في رجاء يسوع المسيح نفسه وفي صبرهِ.

٣٦– وإذا كُنَّا نطلب برهاناً على أن التقديس لا ينقطع عمله في الإنسان رغم

خطاياه، فإن تعليم الشيوخ الذين سبقونا يكفي. فقد أكد هؤلاء إن بقاء الرجاء في قلب الإنسان رغم هجمات اليأس المتلاحقة، هي مِن علامات عمل الروح القدس في القلب. كما أكد هؤلاء أيضاً إن التعليم حسب الإيمان الأُرثوذكسي هو أن اللاهوت لم ينفصل عن الناسوت لحظةً واحدةً ولا طرفةَ عينٍ، فلم يكن ربنا يسوع المسيح إنساناً حسب الأحوال التي يمر بها، وإلهاً حسبَ أحوالٍ أخرى، بل ربٌّ واحدٌ يسوع المسيح، واحدٌ من اثنين، لاهوت مساوي للآب وناسوت مساوي لنا حسب التدبير. وعلى هذا الأساس الثابت، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت بلا انفصال، يكون اتحادنا بالمسيح، وفيضُ نعمتهِ الذي لا يتوقف.

٣٧- وهذا هو برهان الإيمان الذي لا يجب أن نفحصه بميزان العالم الشرير الذي لا يعرف شريعة المحبة، بل يحب بحدود حسب أهواء الخطايا ونزعات الشر.

إن برهان المحبة -أيها الأحباء- هو محبة الله التي لا تعرف الفواصل، بل هدمَت الموت، وأبادت الفساد، وفَتَحَتْ طريق الأقداس، وسَكَبَتْ روح التقديس، وحَسِبَتْ خطايانا كلا شيء، وأعطت لنا ميراث الحياة الأبدية، حتى أننا نُحسب ورثةً مع المسيح، وماذا يُمكن أن يضاف إلى ذلك؟ فكيف يرفضنا الله بسبب خطايانا؟ وكيف يرفض الله أن يُعطِي لنا مياه الحياة التي أشار إليها الرب في حديثه مع السامرية؟ "لو كنتِ تعلمينَ عطية الله" (يوحنا ٤: ١٠)، فلو كانت تعلم عطية الله لطَلَبَتْ مياه الحياة.

٣٨- يقول أشعياء النبي: "أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه، والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا. هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً. لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع. استمعوا لي استماعاً وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم. أميلوا آذانكم وهلموا إليَّ. اسمعوا فتحيا أنفسكم وأقطع لكم عهداً أبدياً مراحم داود الصادقة" (أش ٥٥: ١ - ٣).

وكلمات الروح القدس تكفي، ولكن مِن أجل الضَعف المحيط بنا، أقول إن برهان الإيمان الذي لا يمكن أن يهتز أمام خوف ويأس الخطية، وانعدام الرجاء، هو أن

شركتنا مع الآب في الابن وبالروح القدس ليست بإرادتنا ولا بقوتنا ولا هي مِنَّا، وإنما هي ثابتةٌ في ذاك الذي قَبِلَ الاتحاد بِنَا قبُولاً لا "ندامةَ فيهِ"، ومات لأجلنا عندما كُنَّا نجهل محبته، والذي يقدِّم ذاته كطعام روحي سمائي لنا في كل يوم، أي يسوع المسيح رجاء حياتنا الذي لا تغيب شمسُ محبته ولا تقوى سُحُبُ خطايانا أن تستر جمال وقوة نعمته.

تحذيرٌ من الشكوك التي تزرعها خطايانا:

٣٩- لا يجب أن نستسلم للشكوك التي تزرعها خطايانا؛ لأن هذه الشكوك نابعةٌ مِن قلبٍ ذاق الكبرياء، ولم يَذُقْ تواضع الله، ومِن قلبٍ عَرِفَ القساوة والعداوة أكثر مِن المحبة، ومِن قلبٍ عاش على بر الأعمال، ولم يعرف بذل الإيمان.

وماذا أقول أكثر مما قلت؟ لأننا في كل مرةٍ تهاجمنا الشكوك التي تحاول أن تقطع رجاء محبتنا لله، فلنبحث عن أصلها، وما إذا كانت قد وُلِدَتْ مِن ثقتنا المفرطة بأنفسنا، ومِن اتكالنا على حِكمتنا المحدودة، ومِن رؤية بصيرتنا العاجزة عن رؤية المحبة الإلهية التي بلا حدود.

عمل الروح القدس أقوى مِن خطايانا:

٤٠- يجب علينا أن ننحاز إلى مُعسكر الملائكة والقديسين؛ لأنه الأقوى. ومع إن ضَعفنا يُملي علينا أحياناً أن نشعر بضَعف النعمة، خصوصاً إذا استيقظت شهواتٌ كانت في القلب نائمةً، وسادت علينا، لكن هذا لا يجب أن يجعلنا نظن أن عمل الروح القدس ضعيفٌ، أو إن الروح الكلي القُدرة الذي يُشبعُ كل الخليقةِ عاجزٌ، بل هو أقوى مِن خطايانا؛ لأن خطايانا -سواء كانت بالإرادة أو بالفكر- ليست مِن القوة بحيث أنها تستطيع أن تفصلنا عن الله؛ لأن ربنا يسوع مات لكي يُبيد كل صور وطبائع الانفصال.

٤١- وهذه هي قوة الروح القدس كما سلَّمها إلينا رسول المسيح، مُؤَكِّداً لنا أن

قيامةَ الربِ مِن بين الأموات بالروح القدس سوف تكون قيامتُنا نحن بالروح الساكن فينا، الذي سوف يُحيي أجسادنا في اليوم الأخير. ويجمع من الرياح الأربع كل الذين ماتوا واندثرت حتى قبورهم (رو ٨: ١١). فإذا كانت قوة الروح القدس تُحيي الجسد الذي ذاب في التراب، فلا يجب علينا إذن أن نَشُك البتة في أنه أقوى مِن كل خطايانا، ومِن كل خطايا البشر مجتمعة.

ماذا يعمل الروح القدس عندما نخطئ؟

٤٢- يحذِّر الروحُ القدس النفسَ بواسطة إنذاراتٍ متكررةٍ، فإذا لم تسمع النفس صوتُ التحذيرِ، جَلَبَ عليها الروحُ القدس الخوفَ والتردد، فإذا لم تسمع وتعود إلى نار المحبة، وَضَعَ فيها البرودةَ القاسيةَ مِن ناحية الله لكي تخاف وترتعد, وأيقظ فيها الخوف من الدينونة الآتية.

كان الطوباوي والمعَلِّم العظيم، أنطونيوس يفكر دائماً في النار المعدَّة للخطاة، فكانت الشياطين تخاف مِنه؛ لأنه كان يُذكِّرها بما ينتظرها.

وإذا سقط الإنسان في الخطية يُوبِخُ الروحُ القدس النفسَ على عدم أمانتها، ويضع فيها حسرات وندامات (جمع ندامة). ويجلب عليها أتعاباً كثيرةً، إذ يسمح الروح القدس بأن تُجَرَّبُ النفس في أشياءٍ عزيزةٍ عليها، حتى تُدرك مقدار الخسارة التي لحقت بها. ولكن في كل هذا، لا يختفي الروحُ القدس ولا يتوارىَ ولا يترك النفسَ عاريةً، بل يُقدِّم لها تعزيةً بواسطة الأخوة، ويُذكِّر النفس بكلمة التعليم، ويتودد للنفس أحياناً عن طريق ذكرىَ مجد القديسين أو بكلمات التسبيح التي تحبها النفس، وأحياناً يسكُب العزاء كاملاً، ويكشف للنفس عن أسباب سقوطها. في كل هذا يظل الروح القدس معنا، لا يقطع الشركة؛ لأنه ليس مثل البشر يُحب الذين يحبونه فقط، بل هو يُحب حتى الذين لا يحبون الله، ويشفع في أعداء الله شفاعةً لا تنقطع لكي يعود الكل إلى الله. **ولولا شفاعة الروح القدس في كل البشر، الأبرار والأشرار على حدٍ سواء، لَعَجَز الكل عن التوبة.**

لنضع أنفسنا في جانب ذاك الذي يشفع فينا بالأنين الذي يفوق قوة اللسان والنطق (رو ٨: ٢٦) ولنكن على حذرٍ ونغفر للأعداء؛ لأننا إذا لم نغفر للأعداء، وضعنا أنفسنا بعيداً عن شفاعة الروح القدس، وتحوَّلنا إلى أعداءٍ للمخلِّص الذي غَفَرَ للصالبين، وغرس الصليبَ علامةً باهرةً على قبول الخطاة.

مبادئ الجهاد القانوني:

٤٣– الجهاد المقدس المقبول مِن الله هو أن تبقىَ النفسُ ثابتةٌ على أساس الإيمان مهما كانت الظروف المحيطة بنا. وأساس الإيمان هو:

* لا حياةَ لنا بدون المسيح؛ لأنه هو حياتنا.

* لا رجاءَ لنا إلاَّ بصليب ربنا يسوع المسيح؛ لأنه هو رجاؤنا.

* لا شريعةَ لنا إلاَّ شريعة المحبة؛ لأن الله محبة.

٤٤– لنفرح بالضيقات؛ لأنها تنزع من قلوبنا محبة العالم. ولا نحزن إذا أصابتنا الأمراض، بل ليَكُن لنا سلامُ المسيح، لأن الشفاء الحقيقي هو شفاء النفس مِن مرض الخطية القاتل.

٤٥– كل ما يُقَرِّبنا مِن الصليب –مثل غفران خطايا الآخرين– هو مِن الله. لنقبله مهما كان.

٤٦– احتملَ الربُّ كلمات التعيِّير في خدمته وفي كرازته وفي صلبه، فإذا كنا قد مُتنا مع المسيح، لنقبل كلمات التعيِّير.

٤٧– احتملَ الربُّ الألمَ بسرورٍ (عب ١٢: ٢)؛ لأنه كان يرى ما هو خلف الألم، أي مجد القيامة. هكذا علينا أن نرفع عيوننا إلى فوق، حتى لا نفقد رؤيتنا لمجد

القيامة، أي قيامتنا معه.

٤٨– قَبِلَ الربُّ الموتَ على أيدي الخطاة، وغفر لهم.

وغفر القديس استفانوس اللابس الصليب بقوة الروح القدس خطية الذين رجموه. لتكن صلاة أول الشهداء على ألسِنَتنا: "يا رب لا تحسب لهم هذه الخطية" (راجع أع ٧: ٦٠).

٤٩– لنقاوم كل ما هو ضد الإيمان، ولنَمُت مِن أجل التعليم الصحيح. ولكن لنقاوم بمحبة، ولنَمُت بالإرادة قبل أن نحكم بالموت على الهراطقة؛ لأن الذي مات مع الرب لا يُصدِرُ حكم الموت على الآخرين. ونحن نحكم على التعليم أولاً قبل أن نحكم على الأشخاص.

٥٠– لنقاوم بمحبة المسيح، كل ما هو ضد الإيمان، وهذه –أي محبة المسيح– تطرح عنَّا الغضب، وتعطي لنا طول الأناة والصبر ومسيرة الميل الثاني (مت ٥: ٤١).

٥١– قال الرب لنا: مَن أراد أن يأخذ ثوبك فأعطه الرداء أيضاً (مت ٥: ٤٠)، ولم يذكر الرب أسباب طلب الثوب، أو حتى طريقة طلب الثوب، بل تركها لأهواء الخطاة، وهكذا علينا أن نترك خطايا الآخرين للآخرين. أمَّا نحن، فلا نقاوم طلب القِنية أو حتى الاستيلاء عليها بالقوة، بل لنطلب فقط سلام قلوبنا وهدوء فكرنا بعدم التمسك بما نملك.

٥٢– لنحفظ وصايا الرب بالتخلي عن منطق وحكمة الحياة القديمة وترك الحياة القديمة الآدمية؛ لأن هذا يجعلنا أهلاً لعمل الروح القدس. هذا يشبه مَن يكنس بيته ويرتِّب ما فيه، ولكن الأثاث هو ما يعطيه الروح القدس للنفس.

٥٣– لنتمسك بوصايا الرب، ولو بموتنا؛ لأننا يجب أن نقاوم –حتى سفك الدم– مِن أجل محبتنا للرب.

٥٤– شريعةُ المحبةِ مدونةٌ في الصليب: الفكرُ مأسورٌ بالبذل، متوجٌ بالشوك، والقلب مُنكَسِرٌ مِن أجل الأحباء، يحملُ طعنةَ الرمحِ، واليدان ممدوتان للصفح والسلام كقول النبي: "بَسَطْتُ يديَّ طول النهارِ لشعبٍ معاندٍ" (أش ٦٥: ٢)، والقدمان ثابتتان في طريق الكمال.

لنصبح مثل الذي مات عنا، لكي ننال معه وفيه قيامة المجد. وهذه هي شريعة المحبة المدونة على الصليب في جسد وروح الرب يسوع المسيح:

* لا تحرمنا الجِراح مِن الاهتمام بالأقارب؛ لأن الرب لم ينسَ أُمَه في لحظة موته.

* والبذل لا يجعلنا نُنكر احتياجاتنا الجسدانية الضرورية؛ لأن الرب قال: "أنا عطشان".

* صَفحٌ بلا شروط ولا قيود؛ لأن الرب مَدَّ يديه للمعاندين وقال: "يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

* شريعة المحبة تلزمنا أن نكشف أعماق آلامنا مثل ذاك الذي قال علانيةً: "إلهي إلهي لماذا تركتني". فالمحبة لا تستهِن بالألم.

* ولنسلِّم حياتنا كاملةً مثل ذاك الذي قال: "في يديك أستودع روحي".

٥٥– وشريعة المحبة المدوَّنة في الكتاب المقدس هي بذاتها التي كتبها الرب بدمِه الكريم مُعلناً بموته على الصليب قبول الخطاة قبولاً أبدياً. وهكذا أنشَدَ الروح القدس كلمات المحبة الأبدية على لسان رسول المسيح، فوضع لنا أساس عمل الروح القدس، فهو يعمل في الخليقة الجديدة، بشريعةٍ جديدةٍ.

فالروح يتأنى ويترفق بالخطاة عندما يشفع فيهم. والروح لا يُحاسِب ولا يُعاتِب ولا يتفاخرُ بقداستهِ، ولا يطلب قداستَهُ قبل تطهير الخطاة. لا يحتد الروح القدس، بل يشفع

بأناتٍ لا يُنطَقُ بها (رو ٨: ٢٦) ويحتَمِلُ الروح القدس غباوة البشر، ويصبر على سقطات الجميع؛ لأنه يرجو خلاص الجميع، ولذلك لا يفشـــل الروح القدس (١ كور ١٢: ٤ – ٨).

٥٦– لنضـع أنفُسَـنا على أول هذا الطريق. ولنسـلك حسـب شـريعة الحياة الجديدة التي أعطاها لنا الروح القدس. ولنطلب الحياة الجديدة التي أسـاسـها المحبة؛ لكي يكون لنا الجهاد الحقيقي؛ وهو ليس الهرب من الشر، بل السعي وراء الخير الحقيقي الذي هو "الله محبة".

٥٧– ما الذي يجب أن نعمله، وما الذي لا يجب أن نعمله مهما كانت براهين العقل؟:

لا يجب أن نظن ولو لِمُدة طرفةِ عينٍ، إن أعمالنا الصـــالحة تجعلنا مقبولين لدى الله. هذا ظنٌّ ووهمٌ، بسببهِ نسقط في الكبرياء.

لقد قَبِلَنَا الله في المسيح يسوع قبولاً لا رجعةَ فيه، وهذا يجب أن يُصبح الأساس الراسخ الذي لا يوجد أساسٌ آخرٌ غيره.

أما عملنا الظاهر الذي لا نشك في غايته وجدواه، فهو أن نقبل نعمة الله؛ لأننا إن دخلنا شركة الحياة الجديدة حسب الأعمال، تمَّ فينا تحذير الرسول بولس: "نطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً"؛ لأنه يقول: –أي الله– في وقتٍ مقبولٍ سمعتُكَ وفي يومِ خلاصٍ أعنتُكَ. هوذا الآن وقتٌ مقبولٌ بسبب موت الرب عنا، هوذا الآن يوم خلاص لأن حياتنا –أي المسيح– قد قام من الموت (٢ كور ٦ : ١–٢).

٥٨– فإذا قال لا نقبل "نعمة الله باطلاً"، أكَّد الرسـولُ إن قبول النعمة الباطل هو محاولة إضـافة قبولنا نحن بالأعمال النسـكية، أو ما نراه كأعمال صـالحة. هذا جهادٌ باطلٌ، وعبثٌ لا نجني منه إلاَّ الكبرياء وحب الظهور، وهو جِذر السُبح الباطل.

٥٩- يحفظُ الصومُ نعمة الله. هو لا يخلق النعمة، ولا هو مصدر النعمة، ولا هو سر بقاء النعمة فينا؛ لأن النعمة هي عطية الروح القدس التي وُهِبَتْ لنا في يسوع المسيح. وهذه وُهِبَتْ للخطاة والأبرار معاً بسبب الوسيط الواحد ربنا يسوع المسيح الذي يأخذ الكل من "مِلئِهِ" (يوحنا ١: ١٦).

الصوم حسب روح المسيح:

٦٠- لنصم حسب روح المسيح، أي صوم المسيح الذي أشبع الجياع، وسأل عن الضالين، وشَهِدَ للمحبة الإلهية، وبَشَّرَ بكرازة تحرير المأسورين.

لم يَصُمْ الرب لكي يحمي نفسه، بل صام عن كل فكرٍ، إلاَّ ذلك الفكر الذي يجعله واحداً مع الآب. صام عن طلب تنفيذ إرادته، صام عن ذلك صوماً مطلقاً، لكي يعمل إرادة الآب حسب قوله الإلهي: "طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُكَمِّل عمله" (يوحنا ٤: ٣٤).

أَشبَعَ الجياع، ورَفَضَ أن يسمعَ مشورة الحية، بأن يحوِّل الحجارة إلى خبزٍ، رغم احتياجه الشديد للطعام، لأن الإنجيلي يقول عن الرب إنه "جاع أخيراً" (لو ٤: ٢). هذا هو الصوم حسب روح المسيح؛ أن لا نطلب ما يُشبع قلوبنا واحتياجاتنا قبل الآخرين.

٦١- والصوم حسب روح المسيح هو أن نجلس عند قدمي الرب ونردد معه: "مرثا أنتِ تهتمين بأمورٍ متعددةٍ ومتفرقةٍ، ولكن الحاجة إلى الواحد، وهو ذلك النصيب الصالح الذي لا يقدرُ أحدٌ أن ينزعه" (لو ١٠: ٤٢) لأن ذلك النصيب هو الرب نفسه.

لنطلب الرب وحده مِن كل قلوبنا، وليكن لنا هذا النصيب أيام الاعتكاف أو الوحدة -حسب طاقتنا- لكي نُكَمِّل صومنا حسب روح المسيح، وليس فقط بالانقطاع عن الطعام.

الصوم حسب نعمة الله، والصوم حسب كبرياء النفس:

٦٢- لنصم حسب نعمة الله عندما نُدرك أن كل ما في الخليقة هو تحت اليد العالية، يد ضابط الكل، وإنه هو الذي يُشبع الكل مِن نعمته. وهذا يعني أن نخضع نحن تحت اليد العالية، يد ضابط الكل، وأن نرى كيف يُشبع كل المخلوقات حسب نعمته.

ونصوم حسب هذه النية، فلا نأكل قَبْل الآخرين، ولا نسعى للشبع قَبْل المُحتاجين؛ لأننا نصبح مثل أوتار القيثارة التي يعزف عليها الروح القدس نشيد تآلُفِنَا مع الخليقة التي يُشبعها الله دون أن يأخذ منها شيئاً.

أمَّا كبرياء النفس، فهي ترى احتياجاتها قبل احتياجات الآخرين، وتشبعُ قبل أن يَشبع الغير. ترى حقوقها قبل أن ترى المحبة الباذلة، وتنال كفايتها ولو على حساب الآخرين. هل تعرفون أيها الأحباء مَنْ الذي يفعل ذلك بكل شراسةٍ وقوةٍ؟ المجَرِّب وعدو المحبة، الشيطان، الذي يُطعِمُ النفسَ بالشهوةِ لكي يقودها أسيرةً نحو الموتِ، ويجد في ذلك لذةً وفرحاً بالدمار والموت، ولذلك شجب الرسول هذه المحبة الباطلة الشيطانية، وقال: "المحبة لا تفرح بالإثم" (١ كور ١٣: ٦).

٦٣- وعندما نجعل الميراث السماوي أمام عيوننا، فإننا نصوم دون تعبٍ، ليس لأن الصوم يُعطِي لنا هذا الميراث، أو يؤهِّلنا له، بل لأن الصوم يجعل القلب يطلب السمائيات قبل الأرضيات، وبذلك يحفظ بصيرة القلب.

صوم الشهداء:

٦٤- صام الشهداء، ولذلك جعل الروح القدس موتُ الجسدِ هيِّناً عليهم. وقَدَّموا أجسادهم ذبيحةً حيَّةً ناطقةً قبل استشهادهم، وعندما جاء موعد الذبح، كانوا قد اختبروه روحياً وقلبياً، ولذلك ابتسم البعض، ورتَّل البعض، وصَمَتَ البعض؛ لأن

قلوبهم كانت قد رأت ما يحدث قبل أن يحدث، ولذلك عاينوا مجد المسيح مثلما حدث مع الشهيد اسطفانوس الذي رأى مجد المسيح عند إتمام الصعيدة (الاستشهاد).

هل نأكل إذا شعرنا بالجوع؟

٦٥- لكل إنسانٍ قانونه الروحي، وعلينا أن نحفظ ذلك القانون حتى لا يدخل التردد والانقسام في القلب. لا يجب أن نبطل عزم الإرادة بالتغيرات التي تفرضها علينا الظروف والأحوال المحيطة بنا، ولكن ليكن هذا بمحبةٍ وإفرازٍ حتى لا نسقط في الكبرياء.

٦٦- الإنسان الذي يقرر شيئاً صالحاً، ثم يتردد فيه لا ينجح بالمرة، بل تصاب عزيمته بالوَهَن، ويسيطر عليه الخوف، ويُزَعزِع التردد رجاء الحياة الأبدية فيه.

العزمُ مثل سكينٍ حادٍ، يقطع بسرعة إذا ظل حدُّ السكين جيداً، ولكن سوء الاستعمال يجعل السكين غير حادٍ، والتردد "يَفِلُّ" العزم ويحولنا إلى معسكرين، كلٌّ يحارب الآخر.

٦٧- القلب المنقسم هو ينبوع الفشل.

٦٨- الإنسان المتردد لا ينجح رغم وفرة نعمة الله، ولذلك علينا أن نكون أصحاب عزمٍ، وأن تتألَّه فينا الإرادة بقوة الروح القدس وتصبح واحدةً مع الرب وفيه حتى نصل إلى ميناء الخلاص بفرحٍ سماويٍ مجيدٍ لا يُنطق به.

نعمة الجهاد الحقيقي:

٦٩- عندما نذوق حلاوة محبة الله، نتحول إلى مجُاهدين حقيقيين. **أصل الجهاد هو حلاوة المحبة عند الكاملين.**

٧٠- عندما نتذكر الدينونة والنار التي لا تُطفأ، فإن الخوف يحُركنا نحو السعي

الحقيقي لطلب نعمة الله. **أصل الجهاد هو الخوف عِند المبتدئين**، ليس الخوف الذي يزرعه الناس فينا، بل الخوف الذي يوَلِّدَه الإيمان، وخوف الإيمان تراه واضحاً في حياة المبتدئين. فعندما تفارق عيونهم مجد الملكوت ويسقطون في خطايا .. يعودون بكل خوفٍ لطلبِ المغفرةِ والتوبةِ عن الخطيةِ، حتى تَنزل حلاوة الروح القدس، أي حلاوة المحبة في قلوبهم، فَتُحَوِّل الخوف مِن الدينونةِ إلى خوفٍ مِن فُقدان وخسارة المحبة الإلهية مثل معلمنا أنطونيوس الذي قال إنه لا يخاف الله؛ لأنه يحُبه، ولأن الإنجيلي قال: "المحبة تطرحُ الخوفَ إلى خارج" (١يو ٤: ١٨).

٧١- أمَّا الذين يسلكون الطريق الوسطىَ، فهم يذوقون محبة الله وخوف الدينونة معاً .. وهؤلاء يثمرون؛ لأن الاعتدال يقود خطواتهم.

٧٢- قِيلَ إن الطريق الوسطىَ تُخَلِّصُ كثيرين[١] وكلٍ من يطلب بكل عزمٍ خلاصه مِن الرب الذي هو وحده المخَلِص، يناله.

الإرادة والنعمة:

٧٣- الإرادة هي قوة النفس العاقلة، تحركها العواطف والأفكار والشهوات والنقائص، يدفعها الدَّاءُ الخَفِيُّ، أي الخوفُ مِن الموت إلى حركةٍ غير عاقلةٍ، وتدفعها الكبرياء إلى تجاوز كل الحدود التي وضعتها حكمة الله، أي الوصايا المقدسة التي رسمتها حكمة الله لكي تحفظ الكائنات تحت العناية الإلهية.

٧٤- وقوةُ النفسِ قوةٌ عاقلةٌ، ولكن النفسَ مثل نهرٍ كبيرٍ تصب فيه روافد كثيرة. وقوةُ النفس الأساسية هي حكمة الله التي تُوصف بالذكاء، وهي قوةُ الإدراك والفَهم التي يحُركها الروح القدس في كل البشر حسب اتصالهم بالخالق الكريم الجوَّاد.

---

(١) عبارة مأثورة لمار إسحق السرياني.

أمَّا حركة الروح القدس التي تتم بالتقديس، فهي قدرة النفس أن ترى ما لا يُرىَ وأن تُدرك ما يعلو على الحواس الخمس، وترى وتعرف بحواس الإنسان الداخلية التي يعطيها الروح القدس للذين يؤمنون. وهكذا، لا يجب أن نندهش إن سمِعنا كلمات حكمة مِن وثني، أو إن نطق غير مؤمن بالحق، لأن الروح القدس هو قائد الخليقة، يقودها نحو الحق المتجسِّد، يسوع المسيح ربنا في رِفقٍ وتوددٍ حتى لا يغلب عصيان الشيطان وتمرده، النفوس العاقلة ويجعلها ترفض الله.

٧٥- ونستطيع أن نميِّز حكمة الروح مِن حكمة العالم بميزانٍ لا يقبل الخطأ، وهو ميزان الإفراز السمائي، أي صليب ربنا يسوع المسيح الذي فرزَ القسوةَ والوداعة، وفرزَ الرحمةَ والحكمة، وفرزَ القوةَ والمحبة، وفرزَ الحقَ والتواضع، وثَبَّتَ أمام عيون البشر عمل الله الكامل الذي يفوق مقاييس الحكمة الإنسانية.

٧٦- حسب حكمة العالم، غفران الخطايا والإساءة هو نقصٌ وضعفٌ. وحسب حكمة الروح القدس، هو محبةٌ وقوةٌ. أيهما تقبل يا مَن لبِستَ صليب ربنا يسوع المسيح في المعمودية المقدسة؟

عندما نغفر، فإننا نتحرر مِن ثِقَل الكراهية وقساوة البغضة.

٧٧- حسب حكمة العالم، العطاء والبذل، غباوةٌ أو جهلٌ. أمَّا حسب حكمة الروح القدس، فالعطاء والبذل يُقربنا إلى صورة الله التي وُهِبَتْ لنا في الخليقة الأولى، وتقدَّست في الخليقة الجديدة بالصورة الحقيقية لله الآب؛ ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي هو وحده "صورة الله غير المنظور" (كو ١: ١٥).

٧٨- نحن نُعطِي بسخاءٍ مثل الذي أعطانا كل شيءٍ، حتى حياته الإلهية نفسها وأشركَنا في بنوته وميراثه الأبدي، ووهَبَ لنا عطايا الروح القدس لكي نتشبَّه به بقوة النعمة: "أقيموا الموتى، أشفوا المرضى، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا" (مت ١٠: ٨)، وبقول الرب: "مجاناً" لم يكن يتكلم عن ثمنٍ، بل عن حرية محبة الله التي لا تُعطِي بقيود الأثمان

وحسب الأسعار، بل حتى الاستحقاق نفسه لا تراه المحبة الإلهية، لأن الرب قال إنه يُشرِقُ شمسه على الأبرار والظالمين (راجع مت ٥: ٤٥).

إرادة الخير:

٧٩- يَعرِفُ المؤمنون كيف يميزون بين الإرادة التي يجُدِّدها الروح القدس لكي ما تطلب -بشريعة الصليب- الحياة الجديدة، وبين الإرادة التي لم تنل نعمة الروح القدس ولا تزل تحيا وتعمل حسب قدرات الطبيعة الأولى، أي تلك التي وُهِبَتْ مِن الله في الخليقة الأولى.

٨٠- وعلامات تجديد الإرادة الإنسانية هي:

* الشوق الجارف للأُمور السمائية.

* تفضيل الصلاة وخدمة الآخرين على غيرها مِن أُمور الحياة اليومية.

* معانقة الصليب كينبوعٍ للحياة، وقبول حكمة الصليب.

* انقطاع التردد بين ما هو سمائي، وما هو أرضي.

* الفرحُ بالضيقات.

* قبول الآلام الجسدية بفرحٍ[1].

* احتمال التجارب والمضايقات بصبر.

---

(١) يقول الأب صفرونيوس في رسالةٍ أُخرى إن قبول الألم بفرح "هو مِن علامات تذوق نعمة القيامة في الدهر الآتي، لأن النفس تعاين مجد القيامة وتدرك أن موت الجسد هو الوسيلة الوحيدة للحصول على هذا المجد" نرجو أن ننشر هذه الرسالة في أقرب فرصة (الناشر).

* انعدام التذمر والشكوى.

* وعموماً، قبول حكمة الإنجيل والتشبُّه بالرب يسوع الذي أخلى ذاته وأخذ صورة العبد (فيلبي ٢: ٧)؛ لكي يؤَسِس للعبيد الذين هم فِعلاً في "صورة العبد الأول"، أي آدم الأول أن يطلبوا "صورة العبد الحقيقية"، أي آدم الثاني، لكي بالتحرر مِن الأهواء والخطايا والشهوات الكاذبة، تتَّحد صورة العبد الأول –الذي اشتهى بركة وقوة الألوهة وطلبها بدون النعمة واتكل على ذاته، فسقط مثل الشيطان– بصورة العبد الحقيقي آدم الثاني الذي أخلى ذاته تماماً وحَسِبَها كَلا شيء، لكي يُكَمِّل خلاصنا، فجعل الخلاص أهم مِن ذاته، وجعل إرادة الآب أهم مِن الحياة، فَرَدَّ الحياة: مِن الموت إلى القيامة، ومِن العصيان وحالة البقاء الذاتي (الوجود بالقدرات الإنسانية المخلوقة) إلى نعمة التبني (الحياة حسب المسيح ابن الله). وعندما تتَّحد الصورة القديمة بالصورة الجديدة بواسطة الصليب، وبقوة المصلوب، فإن الصورة القديمة تتلاشى وتموت على الصليب.

موت الخطية، والموت عن الخطية:

٨١– نحن نموت عن الخطية حسب قول الرسول بولس: "احسبوا أنتم أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رو ٦: ١١). وقد شرح الرسول هذا الأساس الرسولي الثابت بقوله: "لا تملك الخطية في جسدكم المائت لكي تُطيعوها في شهوات الجسد" (رو ٦: ١٢)، وشرح الرسول سِرَّ انحدار الإنسان في شهوات وغرور الجسد بقوله: "ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية" (رو ٦: ١٣) وتقديم الأعضاء هو حالة انشطار (أو انقسام) الوجود الإنساني إلى جسدٍ وروحٍ، هذا ثمرة الخطية. ويقدم الرسول دواء المسيح، أي دواء المعرفة الإنجيلية (حسب الإنجيل) "بل قَدِموا ذواتكم لله كأحياءٍ مِن الأموات، وأعضائكم آلات برٍ لله" (رو ٦: ١٣).

وقبل ذلك قال الرسول: "دَخَلتْ الخطية إلى العالم وبالخطية الموت" (رو ٥: ١٢) وموت الخطية، أي (أن تملك الخطية بالموت)، إذ صار الموت هو عرش الخطية الذي

مِن عليه تحكم كل البشـــر، وتقود كل الخطاة إلى حُكم الناموس، أي الموت. وبســـبب الخطية والموت، صـار الدَّاءُ الخَفِيُّ القديم، أي داء الخوف من الموت يحكم ويسـيطر على الإرادة وسائر القُوىَ الإنسانية وبشكلٍ خاص "المخيِّلة" و"الذَّاكرة".

وسـيادة الخطية بالموت هي حالة آدم الأول، أمَّا آدم الثاني، فقَدْ ضَـمَّ الموتَ إلى الحياة في الصليب وأَسَرَ الموتَ، وجعله بداية الخلاص، وصار الموت هو "موت المسيح"، وهو ليس مثل "موت الخطية"؛ لأنه موت الانتصـــار على حُكم الناموس بالصـــليب إذ مات الموت بالصليب وداسه الرب، وبالقيامة أسَّس حياةً تقبل "موت الصليب" لكي تدوس "موت الخطية". فما هو موت الصليب؟

يقول الرسول: "كما قدمتم أعضائكم عبيداً للنجاسة والإثم للإثم، هكذا قَدِّموا أعضـائكم عبيداً للبر وللقداسـة" (رو ٦: ١٩) وجاء المسـيح وأعتَقَ الجسـد بالموت، أي موت الصليب، وأعتَقَ الروح بالقيامة التي ننالها كاملةً في سر المعمودية المقدس، وتظل فينا هذه النعمة كامنةً إلى يوم الدينونة حيث تُشـــرِقُ بلمعانٍ أكبر مِن نور التبني الذي نُعاينه جزئياً، وحسب استنارة قلوبنا.

٨٢- إن موت الخطية[١] هو موتُ الحياة بسبب سيادة الشهوات والشرور. أمَّا موت الصـــليب، أي موت المســـيح المصـــلوب، فهو بذلُ الحياة قرباناً وذبيحةً حيةً، هو انتصارنا في المسيح وبالمسيح على شهوات الخطية.

موتُ الخطية، نراه حينما نجُرِّب استخدام أعضاء الجسد في تنفيذ خطايانا، وهو ما يخلق فينا بسـبب نشـاط الذاكرة، الشـريعة الأخرى في الأعضـاء التي تُحارِب الشـريعة العقلية؛ شـــريعة الإدراك والحكمة (راجع رو ٧: ٢٣). هذه الشـــريعة الأخرى هي الحياة حسـب شـهوات العقل التي تجد في الجسـد، وأعضـاء الجسـد الوسـيلة والغاية معاً، لأن الشهوة تجعل العقل مُظلِماً إلى الدرجة التي يظن فيها أن سعادته المطلقة هي في استخدام

(١) راجع تعبير موت الخطية في أوشية السلام "لكي لا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية ولا على كل شعبك".

أعضاء الجسد أحياناً بما يُخالف ناموس الطبيعة مِن أجل الحصول على كل لذةٍ ممكنةٍ، وهو ما سبق ووبخ الرسولُ الأممَ عليه؛ لأنهم "تركوا الاستعمال الطبيعي، واستبدلوه بالذي على خلاف الطبيعة" (رو ١: ٢٦). وهكذا يستقر في إدراك الإنسان الاستعمال المخالف للطبيعة، وتُحوِّله اللذةُ إلى شريعةٍ أخرى ضد الشريعة الطبيعية، وبذلك ينقسم إدراك الإنسان ويظن أن السعادةَ في اللذةِ، حتى في تلك التي تخالف شريعة الحكمة الإلهية، أي شريعة الطبيعة، ويخلق المخالف لنفسه "كَوناً" (عالماً آخراً) غير الكون الذي خلقه الله له، ويجد لنفسه شريعةً خاصةً به، ويصبح مثل ذاك الذي سَمِعَ قديماً: "يوم تأكل منها تصبح مثل الله" (راجع تك ٣: ٥)، أي لَكَ شريعة وقانون وحكم وسيادة مثل الخالق، ولكن بدون نعمةٍ وشركةٍ مع الخالق. وعندما ينقسم "الذِّهنُ" ويتوزع الذكاء بين الممنوع، لأنه يُضاد الاستعمال الطبيعي، وبين الطبيعي، تنقسم الإرادة وتتوزع قُوىَ النفس العاقلة.

المعرفة تشفي العقل من الجهل:

٨٣– لقد أعطانا الرب هذا التعليم؛ لأن المعرفة تشفي العقل مِن الجهل، ولأن رؤية الإنسان لذاته، تساعده على إدراك حدود وجمال الطبيعة ودقة الناموس الإلهي ومغزاه.

٨٤– لكن المعرفة، وإن كانت تُعالِج الجهل، وتشفي العقل مِن الجهل، إلاَّ أن المعرفة لا تشفي الروح، ولا تخلق فيها الحياة الجديدة، بل تُعطَى الروح الإنسانية هذه الحياة الجديدة بالروح القدس الذي ينقل للعقل صورة المسيح، أي أُسلوب سلوكه وحياته، وينقل للإرادة التقديس، أي خضوع وطاعة المسيح، وينقل للقلب العطش للبر، أي عطش المسيح ومحبته للآب، وينقل "للمُخَيِّلةِ" صورة مجد القيامة وعظمة الحياة السمائية، وهو ما يساعد على تطهير الذاكرة مِن الصور السمجة الشريرة التي رَسَبَتْ في أعماق الذاكرة، ولا يتوقف عمل الروح القدس عِند هذه المراحل، بل يُزيد عطش النفس للالتصاق بالرب، حتى أن النفس تطلب أن تموت مع الرب ولأجله، وهو ما يؤكد أن بذرة سر المعمودية قد

نمت وأورقت أغصـانها، .. ومتى فضَّـل الإنسـانُ الموتَ على السـقوط، نمَى فيه موت الصليب، موت يسوع المسيح، وصار يطلب -بكل ما يملك مِن قوىَ- أن لا يترك الرب. هكذا يخطب الروح القدس كل نفس ويجعلها أهلاً للعرس السماوي الفائق.

المحبةُ، والمعرفة الجديدة:

٨٥- إذا كانت المعرفة تشـفي العقل وتؤَهِّل النفس للنور السـمائي، فإن هذا النور هو المحبة الإلهية. وحقاً قال الرسـول: "الله نورٌ وليس فيه ظلمةٌ بالمرة" (١ يوحنا ١: ٥). وما هي الظلمة؟ "مَن يُبغض أخاه فهو في الظلمة إلى الآن" (١ يوحنا ٢: ٩) أمَّا مَن يُحب أخاه "يثبُت في النور"، أي يثبت في الله، "وليس فيه عثرة" (١ يوحنا ٢: ١٠).

لنثبُت في المحبة، لكي نثبُت في الله. والثبات في الله يؤَهِّلنا لنعرف حسـب المحبة. هذه المعرفة الجديدة لا يُشـكِّلها العقل والإدراك القديم، بل تُشـرِقُ علينا مثل النور، أي يعطيها الروح القدس.

تأملوا أيها الأحِباء، كيف يغرس فينا الموتُ رغبةَ الامتلاك والتسـلط؟،وكيف يغرس فينا الروح القدس رغبة التخلي عن المقتنيات بسبب المحبة ونارها الحارة التي تشتعل في قلب الإنسان، رغبةً في التخلي عن الحياة نفسها؟، وهو ما يُؤَكِّده الرسول بقوله: "إلى الآن لم تُجاهدوا حتى الدم"، أي حتى بذل الحياة (عب ١٢: ٤)؛ لأن الذي بَذَلَ حياته لأجلنا، أي ربنا يسـوع المسـيح، هو الذي أعطانا معرفةً جديدةً تجعلنا نُقارِن الأرضـيات والفانيات بالسـمائيات والأبديات (جمع أبدية) لكي ننال إكليل المجد الذي لا يَفنى، فالمعرفةُ الجديدةُ تُولَد مِن بذرة المحبة التي قد تكون في حجم "حبة الخردل"، ولكنها تنمو حتى تُصبح شجرةً كبيرةً.

قال الرب في المثل إن الله زرع الحنطةَ في حقل الوجود، أي الحياة بأسـرها. وقال الرب إن الشيطان زرع الزوان. وأكَّد الرب بقاء الزوان إلى يوم الحصاد. هكذا لا يجب أن نخاف مِن المعرفة القديمة، وبقاء هذه المعرفة في الذاكرة لا يعني بالمرة إننا نعيش بلا تجديد،

بل تُولَد المعرفة الجديدة مِن نار المحبة الإلهية.

٨٦- وهذه هي ثمار الحياة الجديدة التي تَخلقُ فينا المعرفةَ الجديدةَ: يصبح الجسدُ كله قُرباناً لله الحي، ويتألقُ بنور الروح القدس، وتُشرقُ فيه حياة المِسحة الإلهية التي أخذها في سر الميرون. نرى ذلك في الشباب والشيوخ على حدٍّ سواء، وعندما ترى وتَمَسُ بقلبك رغبةً عارمةً في أن تُلقِي بذاتك وكل ما تملك تحت الصليب لكي يسود عليك المصلوب، فأعلم أن بذرة الحياة الجديدة قد نَمَتْ وإن فروعها توشك أن تحمل الثمرة. وعندما تفرح بالإهانات ولا تحزن، فاعلم أن المعرفة الجديدة، معرفة المحبة قد حلَّت محل المعرفة القديمة؛ لأن الكلمات الباطلة والفارغة لا تحرك إلا الجُهَّال.

٨٧- شريعة المعرفة الجديدة حسب عمل الروح القدس في الذاكرة والمخيلة والإرادة تظهر على هذا النحو:

أولاً: لا يحرك الروح القدس القلبَ ضد حركة القلب، أي ضد حرية الاختيار، بل يتودد الروح القدس، ويخاطب النفس، أي القوة العاقلة بصوتٍ خفيٍ، حتى إن النفس تظن إنه صوتها هي وإنه نابعٌ منها.

ولكن صوت الروح القدس الخفي النابع مِن روح الحق يُحرك الإنسان للابتعاد عن الباطل والكذب، الذي -أحياناً- لا يعرف السبب[١].

ويختلف هذا عن "الحِس" (ربما المقصود هنا هو الضمير) في عدة أُمورٍ أهمها: عدم تردد الإنسان أمام حركة القلب، والامتلاء مِن الفرح والسلام القلبي الذي هو علامة حضور روح ربنا يسوع المسيح، أي روح الحق فينا.

ثانياً: يُحرك الروح القدس، المخيلةَ حركةً خفيفةً لكي لا يفقد الإنسان عطية الحرية، بل يشحن الروح المخيلة بذكرياتٍ وصورٍ مقدسةٍ تُلهِبُ القلبَ بمحبةٍ كبيرةٍ قويةٍ

(١) أي لا يعرف الإنسان أن سبب هذه الحركة هو صوت الروح القدس القابع في أعماق النفس.

وجارفةٍ، وهذا ما يجعل السُذَّج يعتقدون أن هذه النار نابعةٌ مِن قلوبهم، وهنا يجب أن نُميِّز بين ما في المخيلة مِن أُمورٍ وأشكالٍ وصورٍ مِن حياتنا المقدسة وهي ما اختزنته الذاكرة، وبين ما يجدده الروح القدس. لأننا قد نتخيل ونتذكر واحداً مِن الراقدين المقرَبين إلينا، فإذا امتلأ القلب برغبةٍ في اللحاق به في فردوس النعيم، أو امتلأ القلب بالتعزية والسلام لأنه في كورة الأحياء، كانت هذه هي إلهامات (جمع إلهام) الروح القدس. أمَّا إذا أثارت الذاكرة والمخيلة، المخاوف والحسرة والندم الذي لا علاقة له بالتوبة، فإن هذا مِن القلب ومِن حركة الدَّاء الخفي، أي الموت الذي فينا.

ثالثاً: عندما يُحرك الروح القدس الإنسان الجديد الذي فينا، المخلوق حسب صورة خالقه، أي ربنا يسوع المسيح نفسه، فإن المعرفة الجديدة تظهر بشكلٍ جليٍ في الحِس الروحي بحقيقة التعليم الرسولي وصدقه، وفي مُنازلة الشكوك وأسرِها واكتشاف أن الشكوك هي ثمرة الحياة القديمة التي لا تقبل ما لروح الله، والتي وصفها الرسول بأنها "جهالة". ومِن الجهل الذي فينا، تنمو الأفكار السمجة الرديئة، ومِن الجهل، نتصور الأُمور المضادة للروح القدس، وبشكل خاص وداعة وطول أناة روح التقديس الذي يُقربنا مِن الآب والابن[1].

رابعاً: وأهم ما يجب أن نراه في حياتنا الجديدة:

* الأفكار التي تُقربنا مِن غاية الجهاد الحقيقي، أي الاتحاد بالله.

* النيَّات (جمع نية) التي تعمل بشكلٍ خفيٍ فينا لكي تبعدنا عن غايةِ وجودنا.

* حركةُ الخوفِ مِن الموت، وهي حركةٌ نراها في الفكر نفسه الذي يظُن ويتوهم إن شريعة الخير والشر، هي شريعةٌ ذاتيةٌ يحركها العقل والفِطنة، وليست هي شريعة الخالق. هذه علامةٌ أكيدةٌ علي انفصال العقل عن مصدر الحياة العقلية، أي الروح القدس.

---

(١) أي لا يعطينا الجهل فرصة أن نرى وداعة وطول أناة الروح القدس، بل يجعلنا نتصوره على غير حقيقته.

* تَوَهُّم البقاء الأبدي بدون نِعَم الله، وهذا نراه في قساوة القلب والاستخفاف بآلام الناس والاستهتار بتجارب ودموع الذين نعرفهم، وبشكلٍ آخرٍ لا يحتاج إلى دليلٍ أو برهان لإثبات أنه مِن وهم الخلود الذاتي الذي فينا والذي اكتسبناه مِن الخطية الآدمية، وهو الشماتة والفرح بسقوط الأعداء والتلذذ بذِكر مصائبهم.

ينابيع الفكر الجديد للإنسان الجديد:

٨٨- علينا أن نطلب غزارة الحكمة الإلهية مِن الأسفار المقدسة، وأن نداوم على قراءة الكتب الإلهية لكي تسكن فينا كلمة المسيح بغنى (كو ٣: ١٦)، وأن نسهر في الهذيذ بالمزامير ودراسة أقوال معلمي البيعة؛ لأن هذا يضع فينا بذار كلمة الله الحية.

٨٩- يتكون الفكر الإنساني بشكل عام مِن:

* الحياة العقلية التي غرسها فينا الخالق الكريم، وهي الطبيعة العاقلة التي تُدرك ما حولها بدقةٍ.

* إلهام روح الحق الذي يضع بذرة الحق في القلب البَشري كنورٍ يعمل ويرشد الإنسان إلى الحكمة ومعرفة الله.

* التعليم الجيد والرديء على حدٍ سواء.

* العادات التي يغرسها فينا الوالدون والمعلمون والأسرة والجماعة التي نحيا معها.

* الخِبرات الخاصة (الشخصية) التي نحصل عليها.

* عمل الروح القدس الخفي في المؤمنين، وهو أول ثمار سر المعمودية والمسحة المقدسة الإلهية (سر الميرون).

* الصلاة وقراءة الكتب الإلهية.

٩٠– وهكذا يدخل شـــعاع ونور الروح القدس الحياة الإنســـانية لكي يُكَوِّن الذكاء والحكمة، ويحُرك العقل لقبول وصـــايا الله التي بها يرتفع العقل إلى درجة التمييز الأولى، وهي الإدراك والفهم في أبســـط صـــورةٍ له، وهي طلب ما هو نافعٌ وترك ما هو ضـار. والقدرة العقلية، أي المخيِّلة التي تجعلنا نرى معاني المخلوقات وغاية خلقتها، وخلق صور ونماذج لكل المعنويات (الأمور العقلية التي ليس لها وجود مادي)، وغير المحسوسات (الأمور غير الظاهرة والتي لا تُرى).

ونقاء المخيلة يجعل الإنسـان قادراً على أن يتخيل الأُمور السـماوية دون أن يقع في الوثنية عندما لا يُجسِّم ولا يعطي صورةً ماديةً لما يراه، بل يحس روحياً ويتصور عقلياً ما لا صـورة له. وتمد الذاكرةُ المخيِّلةَ بالفكر والصـور مما نقرأه وما نحفظه، لا سـيما الكلام المقدس الذي نتلوه في الكتب المقدسة.

٩١– والكلمة هي القوة المحُرِكة لكل قوى العقل. والكلمة معنوية بلا صـورة، أو محسوسة ولها صورة.

وهكذا خَلَقَ الإنسـانُ الصـورَ المحسـوسـةَ لكي يدرك بها ما هو غير محسـوس. والكلمات التي لها صـــورٌ عقليةٌ في مخيِّلة الإنســـان، هي التي تحرك العواطف أكثر مِن الكلمات التي ليس لها صور عقلية. وهكذا تحرك الكلمة الذاكرة والمخيِّلة وتسكن الكلمة في الذاكرة مثل الطعام في المعِدة. وحسناً مَن قال إن الذاكرةَ هي بطن الإنسان الروحاني[1] الجديد الذي يحيا حسب شريعة الحياة ويسعى لقيامة المجد مع القديسين. وكل ما نسمعه ونقبله ويســـكن فينا وينتمي إلى الحياة الأبدية، ينمو حســـب نعمة وعمل الروح القدس الذي ينقل الحق المودع في الكلمة الإلهية، أي كلمة المواعيد الإلهية إلى الحياة الجديدة التي لا تفنى.

٩٢– وعينُ العقل الروحاني الجديد هي المخَيِّلة في صورتها الجديدة حسب صورة

(١) وردت هذه العبارة في ميمر عن الإنسان الجديد يُنسب للأب أوغريس أو إيفاجريوس.

خالقها، فهي التي تنقل إلى قلب الإنسان ما يعجز عنه كل أعضاء الجسد. وعندما تنال المخَيِّلة قوة تقديس الروح القدس، تتحول إلى قدرةٍ خالقةٍ تجعل الإنسان يرى أثناء العذاب، مجد الدهر الآتي. وفي الصراع المؤلِم، مجد الملكوت. وفي لحظات الألم، فرح فردوس النعيم ونور كورة الأحياء.

الفردوس العقلي الذي شيَّده الرب

٩٣– شيَّد الربُّ الفردوس العقلي، أي الروحاني بتجسده؛ لأنه عاش في هذا الفردوس عندما كان يحيا كإنسان بيننا، وترك لنا هذا الفردوس العقلي.

غرس الربُّ الأشجار الأربعة، أي الأناجيل المقدسة لكي نأكل من ثمارها المحيية. حفر ينبوع ماء هو رسائل الرسل لكي نميِّز بين العهدين القديم والجديد، ونتعلم نعمة الله. وهكذا نبدأ دخولنا الفردوس العقلي بتعليم رسول المسيح القديس بولس، ونشرب من نبع ماء الينبوع لكي نأكل من ثمار أشجار الأناجيل الأربعة.

٩٤– ونحن نلبس بر المسيح بالمعمودية المقدسة حسب كلمات الرسول: "أنتم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧)؛ لأننا نبقى في الفردوس، وفي الوليمة السماوية برداء الخلاص الذي أعطاه الرب لنا. **ولما دخل واحدٌ من المدعوين برداء الأعمال الصالحة، طُرِدَ من الوليمة لأن صاحب الوليمة لا يقبل إلا "بر المسيح"**، فهو البر الحقيقي والصحيح الذي يؤهلنا للدخول إلى وليمة الله.

٩٥– ونحن نأكل من شجرة الحياة التي في وسط الفردوس، أي جسد الرب ودمه لكي نحيا إلى الأبد، أي نحيا بالمسيح وللمسيح. ويلزمنا أيها الأحباء أن نتذكر أن كلمة الله التي بالروح القدس في أشجار الفردوس، أي الأناجيل الأربعة، إنما تعلِن لنا الحقيقة، فهي علامة ورمز يدل على ما هو كائنٌ، ولذلك نحن ندخل من هذا الباب، أي الكلمة، ولكن ما نتذوَّقه ليس فقط المعاني، بل الحقيقة التي تعلو على كل الحروف والكلمات والأسماء التي تحتويها لغتنا الإنسانية؛ لأن الكلمة تشرح وتعلِّم ما هو كائن،

أي محبة الله وتواضعه ورئاسة الابن الكلمة على الخليقة ورئاسته على الكنيسة، جسده المقدس الذي يتكون منه. وكما تكوَّنت حواء من جنب آدم (الضلع)، هكذا تكوَّنت الكنيسة من جنب سيدنا وملكنا. وما تعلنه هذه الكلمة هو هذه الشركة، وما تؤكده الكلمة المعلَنة بالروح القدس في أسفار العهد الجديد هو وجود هذه الشركة، أي أحضان الآب السماوي التي نتكئ فيها بسبب وجود الابن الأزلي في حضن الآب.

٩٦- تعلن كلمة الله ما هو كائنٌ، وما يُشرق لنا بنور الروح القدس الذي ينير إدراكنا لكي نعرف حقيقة علاقتنا بالله الآب في ابنه يسوع المسيح؛ لأننا -عندما نشترك في بنوة الابن الوحيد لكي ننال بهذه الشركة عطية التبني من الآب في ابنه بالروح القدس- ندخل حياةً حقيقيةً نراها بالإيمان إلى أن يجيء زمان رد كل الأشياء (أع ٣: ٢١)، أي تجديد الخليقة، فنرى كل شيء على حقيقته. الآن ننظر في مرآة (معتِمة)[1]، ولكن في دهر التجديد، أي دهر الدهور، سنرى كل شيء على حقيقته.

الثالوث القدوس هو غاية الحياة المسيحية الأرثوذكسية

٩٧- من الآب السماوي أخذ كل مخلوقٍ جوهره كعطيةٍ أبديةٍ. ومن الابن الوحيد كلمة الله، أخذ كل مخلوقٍ "رسم" وشكل جوهره. ومن الروح القدس، أخذ كل مخلوقٍ حركة وبقاء جوهره ونعمة شركته في المخلوقات الأخرى واتحاده بالكون وبالثالوث.

٩٨- ونحن لا ندرك جوهر الكائنات والمخلوقات، مهما تقدَّمت وسائل المعرفة؛ لأن الله أخفى سر الوجود، وجوهر، أي كينونة كل كائن، ولكننا ندرك من رسم وحدود طبع كل كائن مكانه ودوره في هذه الحياة، بل وفي الحياة الآتية. وندرك أيضاً حركة حياة كل مخلوق وشركته في الحياة التي أعطاها الله. وحسب قول الرسول: "لأننا به نوجد ونحيا ونتحرك" (أع ١٧: ٢٨)، فإننا نوجد بالآب، ونحيا ونتحرك بالابن وبالروح

(١) كانت المرايا في زمن الرسول بولس تُصنَع من البرونز اللامع، وكانت رغم ذلك لا تعكس ملامح الوجه بدقة، خصوصاً، بعد كثرة الاستعمال.

القدس. ولذلك السبب، لم يعلَن لنا الآب؛ لأن إعلان الآب لنا هو إعلان عن سر وجودنا، وهو الإعلان المؤجَّل إلى حياة الدهر الآتي، بل أُعلِن الآب في الابن، وأُعلِن الابن بالروح القدس.

٩٩– عندما دخلت الخطية إلى العالم، دخل الموت بالخطية (رو ٥: ١٢)؛ لأن الله لم يزرع الموت ولا خلقه، بل جلبه الإنسانُ على نفسه. ولا يوجد فرق بين جذر الشجرة وفروع الشجرة، أي الخطية والموت. وبالموت تحللت رسوم الكائنات، أي أشكالها وفسدت طبيعتها. وبالموت أيضاً عجزت الكائنات عن أن نحيا معاً في شركة، وأن تخدم سر وجودها. ولكن لما جاء ملء الزمان، أي زمان التجديد، جاء الابن متجسداً لكي يعيد رسم حدود الكائنات ويعلن لنا شكلها الجديد فيه. ونالت الخليقة الجديدة حركة حياة جديدة من الروح القدس، وبذلك وحَّد الثالوث الوجود والحياة والحركة بعمل الخلاص الواحد وبنعمة واحدة تُعطى من الآب بالابن في الروح القدس.

١٠٠– ولما قام الربُّ، رَسَمَ شكل القيامة بقيامته، ولذلك يقول الرسول إن الرب يسوع قام بالروح القدس. ويقول أيضاً إن الله الآب أقامه، ولا عجب في ذلك؛ **لأن القيامة هي شكل ورسم الحياة الجديدة التي لا وجود لها بدون شركة الثالوث.** وفي القيامة أعطى الآب إعلان ابنه الوحيد حيًّاً، دون أن يعلِن لنا حقيقة سر القيامة وحقيقة جوهر الحياة الجديدة، بل أعلن لنا رسمها وحدودها في الابن الوحيد، وجعلها أساس وينبوع الحياة الجديدة التي تفيض من الابن وتتحرك نحو الآب عائدةً إلى أصلها بنعمة وعمل الروح القدس. وهكذا، وحَّد التجديد ما دمرته الخطية والموت، أي سر الوجود والحياة والحركة. وإن كنا الآن ندرك حركة الحياة فينا وشكل الطبيعة الجديدة في المسيح، ولكننا لا ندرك سر وجودها، أي الكينونة؛ لأنه مغلقٌ عليه في سر محبة الثالوث.

١٠١– وعندما ندخل الفردوس العقلي، ندرك أن سر المحبة يعلو على الفهم، ولكننا ندرك رسم المحبة الإلهية وشكلها وحركتها وغايتها من خلال الإيمان بالابن وبالروح القدس لكي نعود إلى مصدر كل الأشياء، أي الآب السماوي الذي منه يولد أزلياً الابن

نفسه، وينبثق الروح القدس.

طقس إعلان أقانيم الثالوث وطقس الحياة الجديدة حسب نعمة الله

١٠٢- وعندما أخذنا طقس حياة الثالوث من الابن الوحيد الذي ذكر الآب أولاً، ثم ذكر الابن، أي نفسه، ثم ذكر الروح القدس (متى ٢٨: ١٩)، فقد كان يسلِّم لنا طقس التجديد؛ لأن كلمات الرب يسوع خاصة بالمعمودية المقدسة. فقد سلَّم لنا الآب كأصل، ثم سلَّم لنا ذاته بالروح القدس كإعلان عن رسم وحدود الحياة الجديدة، ثم سلَّم لنا عطية الآب لنا، أي الروح القدس. هذا الطقس هو (ترتيب) الإعلان، فليس في الثالوث أول وثان وثالث حسب ترتيب الفكر البشري، بل في الثالوث "أصل ورسم وحركة"، وهذه لا يمكن أن تنفصل أو تتباعد أو تتفرق؛ لأن الآب هو أصل الابن والروح القدس. والابن هو رسم جوهره (عب ١: ١ – ٣)، أي الإعلان الذي يحدد لنا وحدانية جوهر الله الآب. والروح القدس هو حركة الحياة الإلهية لأنه هو الذي يفحص أعماق الله (١ كور ٢: ١٠).

١٠٣- وهكذا، حسب طقس الحياة الإلهية، ننال الخلاص من الآب، فننال الحياة والحركة، أي ننال أصل المحبة التي تُكتَشَف في المسيح. ومن الابن ننال الإعلان، ومن الروح القدس ننال هبة وعطية كل مواعيد الله.

لندخل إلى هذا الفردوس العقلي (الروحي) لكي ننال عطية الحياة الأبدية.

١٠٤- فما هو طقس (ترتيب) الحياة الإلهية لأقانيم الثالوث؟

أولاً: لا يوجد أقنوم سَبَقَ الآخر في الوجود. هذا النفي ذو دلالة روحية هامة لأننا نحن البشر يسبق بعضُنا بعضاً في الوجود، ونخضع لقيود الزمان والولادة. أما في الله، فهو خالق كل الدهور، لا يخضع لزمان أو مكان، لا يمكن أن تحتويه الأيام. وهكذا، ترتيب الحياة الإلهية هو حركة المحبة الثالوثية. فالآب الذي لم يسبق الابن، ولم يسبق الروح

القدس، بل الثلاثة في جوهر واحد لا ينفصل، هو أصل المحبة الإلهية. ولذلك يتحرك الآب دائماً بولادة الابن الأزلية، الولادة التي لا تنقطع. وعلى قدر ما يمكن أن يدركه العقل البشري، يقول الآب: "أنت ابني أنا اليوم ولدتك" (مز ٢، أع ١٣: ٣٣، عب ١: ٥، عب ٥: ٥)، ويقول الابن: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، و"الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال التي أعملها أنا" (يو ١٤: ١٠). وهكذا ننال غنى هذا الإعلان الإلهي لكي ندرك أن كلمات الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣: ١٧)، هي كلمات تؤكِّد تميُّز الابن، وتؤكد أزلية المحبة الثالوثية، وتؤكد أن انعدام الزمان في جوهر الثالوث معناه أن الابن هو موضوع المحبة الإلهية للآب دائماً، وأن هذا لا يمكن أن يتبدل، وهذا هو أصل يقين الخلاص.

ثانياً: إذا قلنا إن الجوهر الإلهي للثالوث لا يمكن أن ينفصل، فنحن نؤكد أن الثالوث مساوي، وأن المساواة هي خاصة بكل أقنوم. هذه المساواة تجعل خضوع وطاعة الابن هي خضوع محبة وطاعة محبة، وتجعل مساواة الآب والابن ذات دلالة هامة، فخضوعُ مساوٍ لمساوي يعني أن الخاضع لإرادة الآخر هو مثل الآخر تماماً، وأن الذي قام بالعمل وحقق ما طلبه الآخر هو مساو لمن طلب. أما الآخر، فهو شريكٌ ويحمل بشكلٍ غير مرئي ذات العمل. هكذا لم نعرف ولم نسمع عن طاعة الآب، ولكننا سمعنا عن طاعة الابن، لا سيما ما أكَّده التعليم الرسولي عن طاعة الابن المتجسد. ولكن يجب أن ندرك أن طاعة الآب، خفية لأن قبول الابن للتجسد والموت صلباً والقيامة، يجعل طاعة الآب الخفية معلَنة في طاعة الابن، فقد أطاع الآبُ ابنَه الوحيد عندما قبل أزلياً أن يتجسد الابن، وهذا هو معنى المسرة "الذي به سررت" (مت ٣: ١٧).

أما عن طاعة الابن المتجسد، فقد شرحنا ما فيه الكفاية في الفصل الأول (المئوية الأولى)، وأكَّدنا ذلك في رسالتنا عن شفاعة الروح القدس، لا سيما للأب تيموثاوس.

ثالثاً: ووحدانية الجوهر هي وحدانية الله، وهي تعليم المسيحية الكامل الذي يؤكد لنا أن تمايز الأقانيم لا يعني بالمرة تثليث جوهر اللاهوت، بل جوهر واحد. ودلالة

وحدانية الجوهر هي في ترتيب وإعلان الخلاص الأبدي الذي أعلنه لنا ربنا يسوع المسيح؛ لأن وحدانية جوهر اللاهوت تعني أن المحبة الإلهية محبة واحدة لا تنقسم. فمحبة الآب هي ذات محبة الابن، وهي ذات محبة الروح القدس. وهذا يعني أن المحبة التي أُعلِنت لنا في المسيح هي المحبة الباذلة للثالوث. وإذا كان الابن قد قدَّم ذاته قرباناً حيَّاً مقدساً كاملاً بلا عيبٍ لله الآب، فالله الآب قد قدَّم ذاته قرباناً حياً مقدساً كاملاً بلا عيبٍ لله الابن؛ لأن من يقبل القربان يصبح واحداً مع القربان، ومن يقبل الذبيحة يصبح هو نفسه ذبيحةً، ومن يرضى بموت الابن على الصليب يكون قد قبل هذا الموت لنفسه؛ لأن القبول هو قبول المتساوين، والمحبة هي محبة المتساوين. ولذلك السبب يقول الرسول تحت ستار كلمات العهد القديم عن خدمة رئيس الكهنة الرب يسوع المسيح إنه قدَّم ذاته بالروح الأزلي للآب (عب ٩: ١٣). ولنفس السبب عندما قدَّم الابن ذاته بالروح القدس، فقد تحرك كأقنوم مساو للآب نحو الأصل حاملاً معه الرسم. وبقوة حركة وحياة الروح القدس التي هي له وللآب أعاد الإنسانية إلى مكانها وترتيب قيامها في الشركة به وفيه وبالروح القدس لله الآب.

١٠٥– وعندما يقول الرسول إن الابن سوف يسلِّم "الملك لله الآب"، الذي أُخضِعَ له الكل (١ كور ١٥: ٢٧)، فقد أكد الرسول أن الذي أُخضِع للابن هو الخليقة والسيادة على الكل لكي يُبطِل الابن "كل رياسة وكل سلطان وكل قوة" (١ كور ١٥: ٢٤). ولنفس السبب يؤكد الرسول أن الآب ليس ضمن الذين يخضعون للابن بسبب المساواة. وبعد أن يكمل الابن عمله يقول الرسول: "فحينئذٍ الابن نفسه سيخضع للذي أُخضِعَ له الكل" (١ كور ١٥: ٢٨)، أي سوف يدخل المؤمنين في شركة الثالوث، وفيه كرأس الخليقة الجديدة، ورأس الجسد، أي الكنيسة، سوف يعلِّم الخليقة الجديدة "سر الوجود"، عندما يعيد الخليقة للآب، وعند ذلك فقط "يكون الله الكل في الكل" (١ كور ١٥: ٢٨)، أي تصبح عودة الخليقة إلى سر وجودها كاملةً وغير مستترة كسرٍ بعد أن تعلَّمت الخليقة الجديدة "خضوع المحبة" للآب السماوي.

دلالة تمايز الأقانيم

١٠٦– أكَّد التعليم الرسولي أن الآب لم يتجسد ولم يُصلَب على الصليب، ولكن ذات التعليم الرسولي كشف عن مسرة الآب، وعن "الإرادة الواحدة" (عب ١٠: ٧). وحدانية الإرادة للثالوث، تعني أن كل عمل إلهي لأقانيم اللاهوت خاصة بكل أقنوم، وإذا تميَّز أقنومٌ بعملٍ معيَّنٍ مثل تجسد الابن، فهذا يجعل الآب والروح القدس شركاء في تجسد الابن، ليس لأن كلاً منهما قد تجسد، وإنما لأن كلاً منهما له ذات إرادة الابن. وشركة الإرادة لا تختلف بالتمايز؛ لأن تمايز الابن بالبنوة لا يجعل له إرادة أخرى غير إرادة الآب، فقد نطق الروح القدس على لسان النبي: "مكتوب عني لأفعل مشيئتك يا الله" (عب ١٠: ٧). بهذه المشيئة الواحدة صار لنا دخولٌ إلى هذه الشركة وهذه النعمة التي "نحن فيها مقيمون" (رو ٥: ٢). وتجسد الابن وحده لا يلغي الإرادة الثالوثية الواحدة التي تجعل كل أقنوم شريكاً بالإرادة والمسرة في العمل الواحد للثالوث الذي يقوم به كل أقنومٍ حسب تمايز الأقانيم.

١٠٧– نحن لا نعلِّم بتجسد الآب أو تجسد الروح القدوس، وإنما نؤكد أن شركة الثالوث الواحد في العمل الواحد بالإرادة الواحدة هو الذي يؤكد شركة كل أقنوم في العمل الإلهي الواحد.

وهكذا، عندما تجسد الابن، ظلَّ الآب معه بذات الإرادة الواحدة، وكذلك الروح القدس أيضاً. والإرادة الواحدة تجعل تمايز الأقانيم في الجوهر هي السبب في مصطلحات وكلمات الآباء الرسل مثل: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يو ٣: ١٦). إرادة بذل واحدة لثالوثٍ واحدٍ بالجوهر. وهكذا يجب أن نفهم أن نداء الابن: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤)، هو ذات نداء الروح القدس، وجواب الآب: "هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧).

شركتنا في المسيح بالروح القدس هي النعمة الإلهية

١٠٨– نحن نشـــترك في كل خيرات اللاهوت التي أُعلِنَت لنا في تجســـد الرب وموته وقيامته، أي ما أعلنه لنا ربنا يسوع المسيح، الإله المتجسد.

١٠٩– ماذا كانت حالتنا (كبشرٍ) قبل تجسد الكلمة ابن الله؟

كان أصـــل خلقتنا، أي بشـــريتنا هو العدم، وكانت صـــورة الله التي وُهِبَت لآدم الأول هي النعمة الإلهية التي رَفَعَت من شأن الإنسان وأعطت له مكانةً في الخليقة وجعلته سيد كل الكائنات حسب كلمات المزمور (راجع مزمور ٨). كانت الإنسانية القديمة التي يمثلها آدم وكل بنيه تقف على حافة الوجود حسب صورة الله بالاستمرار في الشركة مع الأصـــل، أي الله. والوجود حســـب الصـــورة يعني أن أي انقطاع في الشـــركة يعيد الطبيعة الإنسانية إلى مصدرها، أي العدم الذي جاءت منه. وعدم عودة الإنسان إلى العدم سببه الأول والأخير هو أن الله لا يندم على عطية أو موهبة يعطيها، فهو يعلم مســـبقاً بكل ما يحدث للخليقة. هذا هو سر الجود والصلاح الإلهي؛ لأن الإنسانية لم تعد إلى العدم، بل ظلت في البقاء بسبب صلاح الله ورحمته، أي بسبب بقاء الصورة الإلهية فينا، رغم الموت والخطية وسيادة الشيطان على الجنس البشري، وهي السيادة التي تؤول له عندما يُسلِّم الإنســانُ إرادته الحرة، والتي صارت مقيَّدة بالشـهوات وخيالات الأرواح الشريرة. وهكذا، كما نقول باســـتقامةٍ أرثوذكســـية: "لم تتركنا عنك إلى الانقضـــاء[1]، بل تعهدتنا دائماً بأنبيائك القديسين" (القداس الباسيلي).

وهذا يعني أن الإنســـانية تركت الله، ولكن الله لم يترك الإنســـانية تركاً أبدياً؛ لأن هذا يعني أن تعود الإنســـانية إلى العدم، مصـــدر خلقها الأول الذي أُخذت منه. وهكذا

---

(١) الانقضاء هو الكلمة القبطية ⲁⲉⲃⲟϩ ومع الفعل ⲙⲡⲉⲕϫⲁⲛ يصبح ترجمة هذا النص: "لم تتركنا عنك إلى النهاية". هكذا لم يكن انفصال الإنسانية عن الله انفصالاً تاماً وأبدياً.

كان الإنسانُ ممسَكاً بنعمة البقاء رغم سقوطه، أي نعمة الصورة الإلهية.

١١٠– وجديرٌ بنا أن نقف برهةً ولو قصيرةً عند حياة الأنبياء القديسين. فقد دعا الله إبراهيم، ولم يكن إبراهيم غريباً أو جديداً على نسل آدم، بل كان ابن سام ابن تارح (تك ١١: ١، ٣٧)، ودعي إبراهيم في بلاد الكلدانيين، فخرج مع عشيرته وقال له الرب: "أجعلك أمةً عظيمةً وأُباركك وأُعظِّم اسمكَ" (تك ١٢: ٢). ولم يكن إبراهيم بلا خطيةٍ، أو كان غريباً عن الداء القديم، بل كان مثلنا، وهو ما يعظِّم نعمة الله.

ورأى أشعياء ربَّ الجنود في الهيكل، ولم يطلب هذه الرؤيا ولا كان مستحقاً لها، بل كان في الهيكل ورأى الربَّ وصرخ من إحساسه بنجاسة قلبه: "ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكنٌ بين شعبٍ نجس الشفتين" (أش ٦: ٥). وعندما اعترف بخطيئته، نُزِعَ إثمه وكفَّر الرب عن خطيئته (أش ٦: ٧).

ودعا الرب موسى بعد أن قتل المصري (خر ٢: ١١ – ١٤)، ولم يكن موسى يصلي، بل كان يرعى غنم يثرون (خر ٣: ١ – ٤).

وماذا نقول عن دعوة الرسل التي سجَّلتها الأناجيل المقدسة، أو دعوة شاول الطرسوسي القاتل والمجدِّف، وهو في طريقه لاضطهاد الكنيسة؟ كل هؤلاء هم البراهين الحية المؤكدة التي تُظهِر لنا نعمة الله التي "لم تتركنا"، والتي تظهر من آن لآخر تؤكد لنا محبة الله للجنس البشري.

١١١– ولنفس السبب تُنشد الكنيسة وتسبح نعمة الله بعباراتٍ رسوليةٍ وإلهية قائلةً: "كراعٍ صالحٍ سعيت في طلب الضال. كأبٍ حقيقيٍ تعبت معي أنا الذي سقط. ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة. أنت الذي أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض ... أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك، كنورٍ حقيقيٍ أشرقت للضالين وغير العارفين" (القداس الغريغوري).

هذه هي إعلانات نعمة الله، لا تقف ولا تمتنع عن العمل بسبب خطية البشر. فحقاً لم يتركنا الله ولم يرفضنا إلى التمام، بل كان نور محبته الإلهية يشرق فينا دائماً، وكما نرى مع كل الذين لم يتوفر لهم الكمال البشري.

ما هي غاية النعمة الإلهية؟

١١٢- إذا كانت غاية الإيمان هو الخلاص، فإن الخلاص يحتوي على ثلاثة حقائق أساسية: الحقيقة الأولى: هي غفران الخطايا، والثانية: نعمة التبني وما يصاحبها من عطايا ومواهب، والثالثة: القيامة والحياة الأبدية، وهي نعمة ميراث الملكوت. غفران الخطايا ليس فقط العفو، بل تجديد الطبيعة الإنسانية التي سقطت تحت سلطان الموت وشفاء هذه الطبيعة هو العمل الإلهي الذي يعجز عنه الناموس. ونعمة التبني هي التي ترفع الإنسان من رتبة العبد حسب الطبيعة المخلوقة من العدم إلى رتبة التبني بسبب الشركة في طبيعة الابن، وهي شركة نعمة في بنوته للآب، وهي الشركة التي صارت لناسوته بسبب التجسد وبسبب اتحاده بلاهوت الابن، وهي تحوُّل الناسوت إلى ذات مجد وكرامة وعزة الابن الوحيد مع بقاء الطبيعة الإنسانية كما هي بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وبسبب رتبة التبني نال الإنسان مواهب الشفاء وإخراج الشياطين، ومعرفة المستقبل، أي النبوة، وغيرها من المواهب التي لا تخص البشرية حسب الطبيعة المخلوقة من العدم، وإنما تخصها حسب نعمة ربنا يسوع المسيح الذي يعطي "أكثر مما نظن أو نفتكر" (أف ٣: ٢٠). وبسبب قيامة الرب نالت الطبيعة الإنسانية القيامة من الأموات، وهي القيامة التي لا نملك نحن شيئاً منها، بل توهَب لنا في المسيح، لأنه لو أن لنا قدرة على غلبة الموت، لكُنَّا صرنا عديمي الموت، ولكن موتنا يؤكد لنا أن قيامتنا هي بقوة الحي من بين الأموات، ربنا يسوع. وهكذا أيضاً يجب أن نعتقد بأن الحياة الأبدية وميراث الملكوت ليس من سلطان لنا حسب الطبيعة المخلوقة من العدم، بل هو عطية الله في المسيح يسوع ربنا.

هذه هي غاية النعمة أن ننال -بالاتحاد بالمسيح- الغفران والتجديد، التبني، القيامة والحياة الأبدية، وأن يعاد تكوين وخلق الإنسان ليكون صورة للمسيح يسوع ربنا،

ولذلك نحن على صورته، وهو ليس حسب صورتنا من جهة لاهوته، واشترك في صورتنا لكي يرفعنا إلى رتبة بنوته.

مجال النعمة الإلهية:

١١٣– النعمة هي شركة الصورة في الأصل، وهذا لا يحول الصورة إلى ذات جوهر الأصل؛ لأن هذا يعني نهاية الشركة. فالشركة تبقى بالاختلاف وتدوم بالعطايا التي تنالها الإنسانية من المسيح يسوع ربنا. وخير مثال على هذا هو السر الإلهي الفائق، سر الشكر. نحن نأكل جسد الرب ونشرب كأسه بكل يقين، لكي نثبت فيه ونحيا به وفيه، ولكي نعود إلى أصل الحياة، أي أقنوم الكلمة المتجسد. وهكذا نحن نشترك في الأسرار الإلهية؛ لأننا بهذه الشركة ننال الخلاص، وندخل مجال النعمة ونبقى فيها. نحن صورة المسيح، وهذا يخص مجد إنسانيته التي هي بالضرورة إنسانيتنا، أي بضرورة تجسده الإلهي واتحاده بنا عندما تأنس. وهكذا جذر النعمة هو في تجسد الرب يسوع؛ لأنه أخذ الذي لنا دون احتياج أو ضرورة، بل بمحبة فائقة للبشر، فنالت فيه الإنسانية المجد الذي أخذه ناسوته. لأن الهرطقة الأوطاخية لا تفهم معنى الشركة، ولذلك تقاومها بضراوة عندما تنكر الاتحاد وتعلِّم بذوبان الناسوت في اللاهوت مثل ذوبان قطرة العسل في بحر من الماء. وأختها التي ولدت قبلها، أي النسطورية عندما تنكر الاتحاد، تقاوم مجد الإنسان في المسيح؛ لأنها تفصل الناسوت عن اللاهوت، وبذلك تجعل الابن الواحد اثنين، وتجعل شركة ابن الإنسان في ابن الله هي شركة نعمة وليست اتحاداً أقنومياً يخصُّ مَن تنازَل من السماء وصار بشراً مثلنا. فإذا كان إنكار بقاء الناسوت يهدم النعمة، وفصل الناسوت عن اللاهوت ينكر مجد الإنسان، فإننا عندما نتمسك بالإيمان الأرثوذكسي ونقول إن الرب جعل لاهوته واحد مع ناسوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، فإننا نحدد مجال النعمة الإلهية التي تعطى لنا لكي نبقى بشراً ننال صفات الناسوت الممجد في الابن لكي يكون هو حقاً "بكراً بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩).

١١٤– عندما تجسد الرب لم يكن تجسده تحولاً في طبيعته الإلهية، ولا انتقالاً

لطبيعته الإنسانية إلى اللاهوت. وهكذا يقول الرسول بولس إنه عندما تجسد "افتقر وهو الغني"، أي صار في فقر الناسوت. هنا يجب أن نسأل: وما هو فقر الناسوت؟

١- الخلق من العدم، وهو يعني بالضرورة أن الإنسان كائن بإرادة الله وباقٍ حسب مسرة الله، ولا وجود خاصاً له، بل أنه عندما اشتهى الوجود الخاص، سقط في خطية اشتهاء أن يكون مثل الله، وطُرِدَ من فردوس النعيم، لأنه أراد أن يكون مثل خالقه.

٢- وإذا كان الإنسان يبقى بإرادة الله، فهو لا يملك أن يحدد مصيره بنفسه، بل يحدده له الخالق الكريم، أي أنه لا يملك أن يحدد بقدراته، البقاء الذي يختاره. فإذا شاء الإنسان أن يحيا إلى الأبد، ينال البقاء الأبدي من الله كعطية، وهي العطية التي أعلنت لنا في المسيح يسوع ربنا.

٣- وإذا نال الإنسان الحياة الأبدية، فهو لا يملك أن ينفصل عن الله ويصبح "واجب الوجود"، "ذاتي الحياة"، أي لا ينال النعمة لكي يصبح له وجودٌ مستقلٌ عن الله، لأن الاستقلال عن الله هو ذات خطية الإنسان الأول.

٤- هكذا النعمة شركة، والشركة تعني التمايز التام حسب الطبيعة، أي تظل الطبيعة المخلوقة متمايزة عن اللاهوت، لا تملك بحكم حدود ومميزات وصفات الطبيعة المخلوقة، أن تصبح لاهوتاً، أو تصبح هي الله. وهكذا يوجد فرق كبير بين مَن يقول إن الكل يصبح الله، والتعليم الرسولي الذي يقول: "لكي يكون الله الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨)؛ لأنه في حياة الدهر الآتي، يصبح الله الكل، أي مصدر الحياة والوجود والحركة لكل الذين نالوا بالفداء حياة وميراث النعيم الأبدي.

ما الذي يمنع تحول طبيعة المخلوق إلى طبيعة الخالق؟

١١٥- حسب التعليم الرسولي الأرثوذكسي، خُلِقَ الإنسان من العدم، وهذا يعني أن له أصلٌ معروفٌ، وهو العدم. وخلق الإنسان من العدم يفرض حدوداً على

الطبيعة المخلوقة وهي:

١- حد البقاء بالإرادة والمسرة الإلهية.

٢- حد الوجود حسب الصورة الإلهية التي أعطيت للإنسان، وهذا يعني أن النعمة الأولى، أي خلق الإنسان حسب صورة الله، والنعمة الثانية، وهي تجديد الصورة الإلهية لتكون حسب صورة الابن الوحيد المتجسد، وهو الأمر الذي يحدد للإنسان البقاء حسب النعمة، فهو لا يملك أن يحول كيانه إلى صورةٍ أخرى غير الصورة الإلهية التي أعطيت له. وقد جرَّب الإنسان الأول الوصول إلى صورة الله حسب اختياره، فسقط في الموت، أي وجد الفراغ والعجز والفقر الذي كان يستطيع أن يحوِّله، بنعمة البقاء حسب صورة الله، إذ يصبح الفراغ هو بداية الشركة في الامتلاء من اللاهوت، والعجز هو بداية التأمل والصلاة للبقاء حسب صورة خالقه، والفقر هو بداية الغنى بمواهب وعطايا الروح القدس كإله للخليقة المنظورة يقدِّمها لله الآب.

وهكذا جاء السقوط، فتحول الفراغ إلى شهوة أُلوهةٍ كاذبة، وتحول العجز إلى طلب قوة ذاتية نابعة منه، وتحول الفقر إلى كبرياء الوجود والخُيلاء والتمادي في تصور ما لا يملك. وهكذا دخل فساد الموت، أي انحلال القوى الروحية نفسها، وثنائية الجسد والروح؛ لأن الموت أفسد وحدة الكيان الإنساني عندما تصوَّر الإنسان أن ما يريده عقلياً يمكن أن يناله من جسده أو أجساد الآخرين، أو حتى من الكون، فسقط العقل νουσ في تصورات وأوهام ما لا وجود له أي الشر، وبسقوط العقل νουσ تحول الفكر من الحياة إلى الموت، أي لم يعد الإنسان يفكر كما كان يفكر قبل السقوط، بل صار يفكر تحت سلطان وسيادة الموت وأوهام الشر. والفرق بين الاثنين كبير؛ لأن الفكر الحر قادرٌ على تصور وإدراك الحق وقبول نور الآب، دون عناء. أما الفكر المستعبد للموت، فهو قد أعين بنعمة الإفراز لكي يفرز النور من الظلمة.

صفرونيوس يطلب بركة صلواتكم